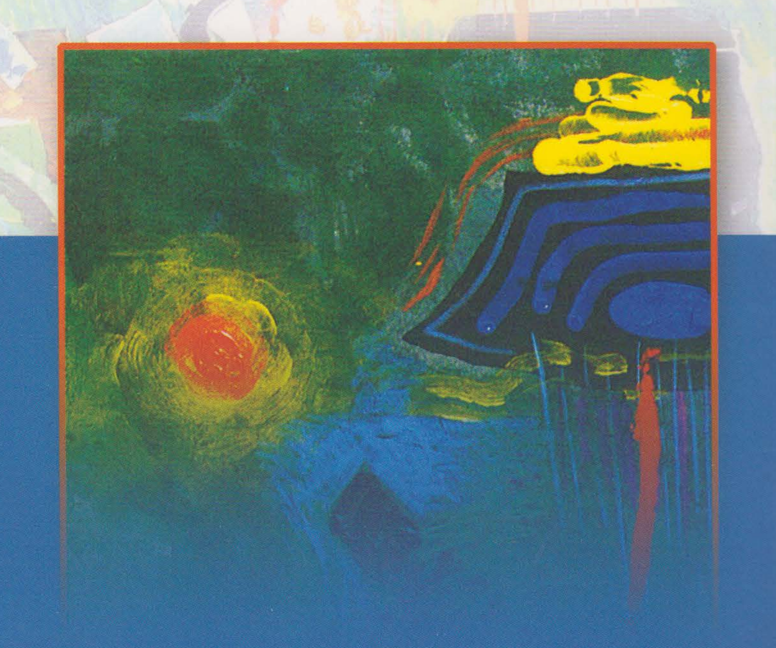
خولة القزويني

البيت الدافئ

رواية






مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com



البيت الدافئ

الطبعة الرابعة
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩م



للطباعة والنشر والتوزيع



بئر العبد - خلف محطة دياب

تلفاكس : (+9611) 27 49 42 _ (+9611) 55 29 00

جوال : (+9613) 80 01 49 ص.ب : 25/91 بيروت - لبنان

E-mail : dar_asafwa@hotmail.com

خولة القزويني

البيت الدافئ

دار الصفوة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي﴾

صدق الله العلي العظيم

الإهداء

إلى زوجي الغالي عبد الله

إلى براعم الحب وثمرات الفؤاد

حسن، حوراء، مصطفى، علي

أُهدي هذا الكتاب

خولة

المقدمة

بقلم الاستاذ حسن ياغي

قال أحد النقاد مرة عن الكاتبة الفرنسية «فرانسوا ساغان» انها تفكر كرجل، وتحس كامرأة، وتتصرف كمسؤولة. وهذا الوصف البديع ينطبق إلى حد كبير على الأديبة خولة القزويني بوضوح، ففي اسلوبها المميز تكامل بين قوة الرجال وحنان المرأة وواقعية المنطق.

لقد تعددت الآراء حول قضية الأدب النسائي واختلفت بين مؤيد ومعارض، وكان هناك من وافق على الأدب النسائي كمصطلح، ومنهم من ذكر أن الأدب لا يعرف الجنس أو العنصر باعتباره نشاطاً انسانياً في المقام الأول، سواء أكتبه رجل أم امرأة. واختلف آخرون مع هذه الآراء وتحدث عن الخصوصية في الأدب الذي تكتبه المرأة.

فالكتابة فعل انساني بالدرجة الأولى، ونحن نجد أن

المرأة تكتب بلسان الرجل أدق الاشياء، ونجد الرجل يكتب بلسان المرأة أدق همومها. فليس هناك أدب نسائي وأدب رجالي، ولا يمكن أن اوافق على الأدب النسائي كمصطلح. وفي اعتقادي أنه لا يمكن تقسيم الابداع تقسيماً مطلقاً على هذا الأساس، لأن هناك مثلاً بعض الشعراء، ولا داعي لذكر الاسماء، يتكلمون عن احاسيس الانوثة بأكثر مما تستطيع المرأة في بعض الاحيان، وبعض النساء أيضاً يكتبن عن الرجال ما لا يستطيع أن يكتبه الرجال انفسهم. ولا اعترف ان الكتابة تختلف بنوع الجنس. لكن هناك خصوصية لكتابة المرأة، وهذه الخصوصية جاءت من أن للمرأة دائماً تجربتها الخاصة. لكن المفروض أن الكاتب سواء كان امرأة أو رجلاً يكتب للمجتمع ككل ويعبر عنه، فيعبر عن الطفل والشيخ والرجل والمرأة والغني والفقير والطبيب والصحفي والمحامي. فمن هنا تكون الخصوصية صغيرة جداً نسبة إلى ما يتمتع به الكاتب من نظرة شمولية ورؤية عامة.

فالكلمة مسؤولية، وممارسة الكتابة هي في الواقع شكل من أشكال الوعي بهذه المسؤولية متى اخذت الكتابة مساراً واعياً وبعداً ناضجاً، بعيداً عن الاسفاف أو الاساءة أو مجرد الظهور أو إبراز الذات. فهناك شريحة كبيرة من صاحبات ـ الحبر المسال ـ لا الفكر والرأي، فانهن يمارسن التعبير الذاتي عن عواطف تشتعل داخلهن مما جعل الكتابة بالنسبة لهن

مجرد ـ رسائل وردية ـ مجهولة الهوية في الغالب.

لقد قرأت الكثير للأديبة خولة القزويني على صفحات الدوريات، وكذلك معظم اعمالها الأدبية والقصصية بدأ بـ «مذكرات مغتربة» وكذلك «مطلقة من واقع الحياة» مروراً بـ «عندما يفكر الرجل» و«سيدات وآنسات» و«جراحات في الزمن الرديء» واخيراً لا آخراً هذا الكتاب الذي هو الآن بين يدي والذي يزخر ببعض الموضوعات المتنوعة، حيث حرصت المؤلفة على أن تترجم الواقع بكل قسوته وقهره ومرارته ومفارقاته واختلال موازينه. وقد انطبع ذلك كله وانعكس في قلبها وعقلها وفي وجدانها وفكرها. فكانت معاناة واقعية وجدانية تمخضت عن صياغات فنية احتوت خواطرها وشاعريتها وتجربتها.

ان تلك المفارقات في واقع الحياة واختلال الموازين الدنيوية. هي التي جعلت خولة القزويني تضع مبضعها على الجرح لتصقل شيئاً من معاناة اللحظة الصعبة، هي لحظة المخاض وساعة الولادة والابداع، لاسيما وان الواقع غارق في بحور تلك الامواج المتلاطمة بالتناقض وانقلاب القيم. هذا ما نجده في اسلوب وابداع خولة القزويني من صياغة فنية تصويرية تستوعب حجم المعاناة، فتختار لها قوالب مرسومة بمفردات مستمدة من طبيعة الحياة، وتختار خصائص عميقة من سر تلك الاحداث وتنطقها بصورة جوهرها وكيانها فتتبلور معاناتها

واحاسيسها بتلك الصورة المتألقة.

ان هذا التلاحم الذي نجده عند الكاتبة والقاصة خولة القزويني، بين همومها العامة والخاصة، والانسانية والذاتية، لتنسجه بخيوط وجدانها ومرارة احاسيسها، لتظل مبدعة من معاناتها انطباعات حارة وشفافة. وهي ـ كما علمت منها ـ عانت كثيراً من هجوم ومعارضة الكثيرين في بداية مشوارها الأدبي، ولكن ذلك هو ضريبة أهل الفكر الرفيع والابداع المتميز. واستطاعت هذه الأديبة أن تحول المفردات اليومية إلى لغة تترجم فيها أفكارها ومواقفها ورؤاها، تلك اللغة السلسة المتألقة بالفحوى المشع والرمز الساطع.

ما احوجنا إلى مثل هذه الاقلام الجادة الهادفة الداعية دائماً إلى الغد الافضل. وبالرغم من الظلال القاتمة السواد التي اشكلت المشهد الثقافي والأدبي والفكري في عالمنا العربي عبر كتابات غذتها الاوهام التي طوح اصحابها بالاهداف والمبادىء والآمال، فان قلم الكاتبة خولة القزويني سيبقى الحنجرة الصافية للثقافة العربية على ايقاع المبدعين.

حسن ياغي

رئيس تحرير جريدة «الناس» اللبنانية

البيت الدافىء

البيت الدافىء يعني امرأة دافئة، تكتنفها مشاعر متدفقة تفيض من قلبها الطاهر الذي يختلج بحب الله ويتنعم بفضائل القرآن الكريم، فتسلك في حياتها مسلكاً مستقيماً ثابتاً، لأن حب الله سبحانه هو المحور الذي تدور حوله في علاقاتها الاجتماعية وتوازنها النفسي.

فاستقامة المرأة يعني بيتاً عامراً وحياة هادئة وسعادة أبدية تستقي جذورها رواء القرآن الكريم.

خولة القزويني

الجزء الأول

استيقظت ميساء هذا الصباح متثاقلة، ثمة قوة تشدها إلى الفراش، تثاءبت وهي تتقلب بتكاسل، انتبهت إلى ثياب زوجها قد استبدلها بثياب الخروج، صمتت تبحلق في فضاء الغرفة ساهمة والضيق يعصر قلبها ويمزق نبضات الارتياح، ترسم خطوطاً باهتة في مخيلتها وتعبث بأحلامها الضبابية، تنهدت غاضبة ثم دفنت رأسها في الوسادة خشية صخب الأفكار التي تضج في رأسها «ثلاثة أعوام مضت والحمل متعذر عليّ يا إلهي، كيف أتصرف فخالتي تلح على ولدها للزواج من ابنة خالته، كلهم ينظرون إلي بترقب، يتطلعون إلى ذلك الحلم المنشود».

تسمّرت في مكانها، أحسّت أن كل شيء فيها يتنهد، قلبها، جسدها، شيء يغوص إلى الأعماق ويفجر الدموع.

سمعت طرقاً شديداً على الباب فاستيقظت مذعورة، لملمت أطراف قميصها وهبت واقفة، وقبل أن تقترب بقليل دفعت الباب وإذا بها خالتها غاضبة:

ـ الساعة قد جاوزت العاشرة وأنت ما زلت نائمة.

تلعثمت لا تدري ما تقول تحسست جبينها

ـ كنت مجهدة.

عادت الخالة تشيح وجهها وهي تصفق الباب وراءها..

تجمدت ميساء في مكانها ودمعتان حبيستان سالتا على خديها، دفنت مرارتها بقسوة وضغطت بكل أعصابها على خواطرها المتدفقة حتى لا تنفجر يوماً.. وها هي تتكوم فوق حطام من الآمال.

منذ ثلاث سنوات وهي تحتمل هذه الخالة العجوز التي كبر كل شيء فيها، حجمها، رأسها، طموحها، خبثها، عرفت كيف تحتفظ بأولادها الأربعة تحت ظلها وتهيمن على زوجاتهم، هذه المرأة الصلبة التي لم يستطع أي مخلوق أن يقف في وجه إرادتها، وميساء الزوجة الصغرى لابنها الرابع هاشم التقتها في إحدى الأعراس جالسة في ركن منعزل تصفق للعروس، لفتت الأنظار بجمالها وابتسامتها الساحرة، جميلة كزهرة برية، رقيقة كنسيم الصباح، حالمة كالفجر، بشرتها

البيضاء المشرَّبة بحمرة، وشعرها البندقي الطويل يرقص فوق كتفيها ناهيك عن قامتها الدقيقة المنتصبة في كبرياء، استقطبت إليها العيون، سألت خالتها «أم محمد» بعض الحضور عنها فعلمت انها ابنة الحاج عبد الله المسرور، تاجر بسيط في الخمسين من عمره وهي وحيدته في هذه الدنيا، خطبتها «أم محمد» على الفور فلم يمانع والديها هذه الزيجة، فعائلة العريس ميسورة ومعروفة في الأوساط الاجتماعية ولها صيتها العريق، وميساء عروس جميلة ومثقفة يتمناها كل شاب، وقد أعجب بها هاشم كثيراً خصوصاً عندما جلس إليها وخاطبها شفاهاً واكتشف شخصيتها الناضجة عن قرب، فحبها للقراءة والمطالعة أثرى معلوماتها، وهاشم صحفي في إحدى الصحف اليومية ويحتل مركزاً جيداً، كان لقاؤهما يشكل ثنائياً رائعاً. عرف هاشم كيف يسبر أغوارها ويفهم أعماقها، فأحبها حباً شديداً وبادلته تلك العاطفة الجارفة ومنحته قلباً فتياً يفيض حباً وحيوية، وكبر هذا الحب مع الأيام وسقته لحظات الشوق والترقب رذاذاً ندياً من السحر الخفي الذي عجز الآخرون عن فهم سره الدفين، فلم تزده المشاكل إلا قوة ورسوخاً، هذا ما أثار غيرة الآخرين.

كانت ميساء أجمل زوجات اخوانه وأفضلهن شمائلاً وأرقهن طباعاً وأنضجهن فكراً فأصبحت موضع احترام اخوانه، وبالأمس لم تكن تلك المشكلة إلا سهماً رشقته أصابع عابثة

تتصيد الفرص لتمزيق مشاعر الود والاحترام. فزوجة «حماها» الأكبر فتوح تدور في دائرة الشك والحسد. . هذا الخطأ لم يكن متعمداً كما ظنت «فتوح» والأمر لا يستحق كل هذه الإهانة. عندما كانوا جميعاً يتناولون طعام الغداء شاءت ميساء أن تصب الرز في صحن كل فرد وبعفوية سقطت الملعقة في حجر «محمد» وهو حماها الأكبر. ابتسمت خجلة، ارتبكت لا تعرف كيف تتصرف في حين احتوى محمد هذا الاحراج وهو يضع ابتسامة شاكرة تجاهلت هذا الحدث قائلاً في لطف: «لا عليك يا ميساء الأمر جدُ بسيط»، تململت فتوح في مكانها وأسقطت نظرات غاضبة على زوجها وميساء ثم بحدة صرخت:

ـ ما هذه الحماقة؟! ألا نعرف كيف نصب لأنفسنا الطعام، يبدو أنك متخصصة للخدمة.

تجمدت ميساء في مكانها تتلفت هنا وهناك لتداري الحرج في حيرة لا تدري ما تقول، لكن هاشم استطرد:

ـ الأمر لا يستحق كل هذا التأنيب.

ونهضت فتوح من مكانها وهي تصب جام غضبها على هذه المرأة، أصبحت كالكابوس يهددها في كل لحظة خصوصاً عندما تلمح هذا الاحترام الذي يضفيه زوجها عليها، لحقها محمد وخلف الباب المؤصد دارت المعركة. .

قال محمد وهو يشدها من ذراعها:

ـ أنا لا أعرف لماذا تبالغين في تضخيم الأمور إلى هذا الحد؟!

وبعصبية تصرخ فتوح:

ـ إنها كالأفعى المسمومة تعرف كيف تنفث سمها في حياتنا.

انتفض محمد صارخاً:

ـ ولكنها لم تفعل شيئاً

وارتفع صراخ فتوح:

ـ إنها تلتصق بك وتقترب منك.

ارتعد حانقاً وهوى على خدها يصفعها، بينما انفجرت تصيح في عنف.

ـ سأترك لكم البيت حالاً، أفهمت.

وفي الصالون سمد الجميع، غمرتهم أحاسيس الخوف والاضطراب تتردد إلى مسامعهم نوبات الصراخ آتية من غرفة الزوجين.

التفتت الخالة إلى ميساء تعنفها بعينيها، وتزم شفتيها بغضب وكلها لوم وحنق، بينما ميساء مشدودة الأعصاب، هائمة في خيالات وهواجس ليس لها قرار، لا تدري ما تقول؟

تركت المائدة وعادت إلى غرفتها وبقت حبيسة دارها حتى الصباح، رن الهاتف، حملته بيدين مرتعشتين وشفتين مرهقتين وكان هاشم المتحدث.

ـ كيف أصبحت الآن؟

انفجرت باكية:

ـ أنا مرهقة يا هاشم وأحتاج إلى الراحة.

هل تودين زيارة أهلك لبضعة أيام؟

وفي حيرة تهتف:

ـ لا أدري. . لا أدري.

تنهد هاشم وهو يستجمع أعصابه ليهدىء من روعها.

ليتك تغضين النظر عن هذه التفاهات.

ـ لقد نسيت إساءة الأمس.

ـ على أية حال نتفاهم فيما بعد، مع السلامة.

ـ مع السلامة.

تركت ميساء غرفتها متجهة إلى الطابق الأسفل، وجهها شاحب كأن الليل امتص حمرته وبصقها، كانت الخادمة الفلبينية التي تحبها كثيراً وتشفق عليها، قد جهزت لها طعام الإفطار:

ـ تفضلي يا سيدتي لتتناولي طعامك في المطبخ، وبينما هي في طريقها سمعت خالتها تتحدث إلى فتوح في الهاتف، لم تكن تتعمد سماع حوارهما ولكن ثمة كلمات كانت تنطلق كالمدفع الرشاش في رأسها قوية قاسية «إنها معقدة من موضوع الحمل، تشعر بالخوف والارتباك ولهذا اعذريها يا ابنتي». طردت من رأسها هذه الكلمات، تود لو أنها كانت محض وهم لا حقيقة، دقت الأرض برجلها حازمة، كأنها تستنهض عزيمتها لتواجه معركة وجلست على المائدة ترتشف الشاي وهي لا تشعر بلسعة حرارته، كأن سخونة أعصابها قد أنستها لسعة الشاي، ربما تعاند، تكابر، شيء في هذا الرأس الجميل يتحدى فلأقهر الآخرين بإيماني الكبير بالله، أنا لست ضعيفة، بالعكس إن الله سبحانه قد حباني كل مقومات القوة لتجعلني أقاوم بل أدافع عن نفسي، امتلك سلاح المبادىء والثبات والمواهب وحتى الجمال.. وقفلت راجعة إلى خالتها في الصالون وقد جلست على أريكتها الواسعة في استرخاء، قدمت إليها فنجان الشاي قائلة:

لقد صنعته بيدي لك.

رمقتها الخالة بنظرة فاحصة، تتأمل سر هذه المرأة التي استحوذت على قلب ابنها، وساوس كثيرة تتراقص كالشياطين في رأسها، إنها لا تحب ميساء، لا تعرف سر نفورها منها،

شيء كالخيط الواهن ليس محدداً بنقطتين بل لا يمكن رسمه بوضوح، شيء مبهم.

تنهدت وهي تشير إلى مائدة صغيرة قرب الأريكة.

ـ ضعيه هنا.

جلست ميساء وهي تلف خمارها الأبيض حول رأسها فبدى وجهها رغم شحوبه بريئاً منيراً كالبدر يشع من أعماقها شعاعاً صافياً فيضفي عليها غلالة من الطهر.

ـ أنا لا أريد أن يتأزم الموقف بين محمد وفتوح.

ابتسمت الخالة ابتسامة ساخرة.. وأكملت ميساء طرف الحديث.

ـ الأمر كان محض صدفة ولا أدري لم تبالغ فتوح إلى هذا الحد.

قالت الخالة وقد امتقع لونها:

ـ لقد تخاصما كما تعلمين وفتوح تمكث في بيت أهلها الآن.

بدت ميساء ساهمة تفكر ثم أردفت

ـ والآن ما هو الحل؟

اعتدلت الخالة في جلستها وكأنها تنبأت بهذا الخاطر الذي راودها فجأة:

ـ اعتذري لها.

صعقت ميساء في مكانها وصرخت محتدة:

ـ أعتذر؟!! ولماذا أعتذر؟ ما هو خطأي؟ هي التي أهانتني وافتعلت المشكلة وبالغت فيها لتضعني موضع اتهام، هكذا هي دائماً لا أدري سر كراهيتها لي.

اتخذت الخالة لهجتها شيئاً من اللين والرطوبة:

ـ اعتذري لها لأجلي أنا، ليتم شمل أولادي مع زوجاتهم، أنا لا أحب الفرقة بينهم.

وبدت ميساء مصرة في عناد:

ـ ان اعتذرت لها معنى هذا أثبت أنني المذنبة وهي البريئة وأنا لم أفعل ما يستحق إدانتي.

غضبت الخالة:

ـ إذن لا تخوضي معي في هذا الموضوع، انتهينا.

صمتت ميساء، شرعت تبحلق في وجه خالتها، كأنها تبحث في أعماقها عن سر رهيب يجول في خاطرها طوال هذه السنين.

قالت بانكسار:

ـ أعرف يا خالتي أنك لا تحبيني لأني لم أنجب طفلاً لولدك هاشم، تأكدي أني مجروحة جرحاً أليماً لا أعرف كيف أداويه، الطبيب يؤكد سلامتي وهذا الأمر بيد الله.

ازدردت الخالة ريقها ثم همت تعنفها:

ـ ولكنها أنانية منك تحرمين ولدي الخلفة من غيرك.

أوشكت ميساء أن تنفجر من الغضب لكنها تمالكت أعصابها

ـ أنا لم أمنعه، ولدك حر، دعيه يتزوج من يشاء.

ابتسمت الخالة ابتسامة صفراء متمتمة

ـ حر؟!! إنك تملكين زمام أمره وتربطين رقبته برباط من..

قاطعتها ميساء:

ـ برباط من ذهب، من حب، وليس كما يخيل لك

وأكملت الخالة حديثها:

ـ انظري إلى اخوانه محمد له ثلاثة أولاد من فتوح، حسين أب لابنتين من ناهد، وعماد له بنتاً وولداً من فريدة.

قالت ميساء وهي تضرب كفاً بأخرى:

ـ وهشام رصيده من الذرية صفرا، لكن هشام أسعد أولادك وأهنأهم بالاً وأنجحهم في الحياة وأنت تعرفين ذلك جيداً، والأولاد رزق من عند الله، اليوم أو غداً يرزقنا الله سبحانه بالذرية.

امتعضت الخالة تود لو تختم هذا الحديث:

ـ يبدو أنك فارغة هذه الأيام أرى لو تشغلي نفسك بشيء مهم لعلك تترفعين عن هذه المنغصات.

ـ اطمئني كلها أيام وتنتهي اجازتي لأعود إلى عملي.

نهضت ميساء من مكانها، اقتربت من خالتها تحمل فنجان الشاي الفارغ لتعود به إلى المطبخ، ولمحت الخادمة الفلبينية تطل عليها بعينين مشفقتين، كأنها تطمئنها بوجود حليف يقف إلى جانبها ويتحسس آلامها عن قرب، بيد أن ميساء تعرف أن هذه الخادمة تحبها كثيراً فهي تعطف عليها تقدم لها بين فترة وأخرى بعضاً من النقود والملابس ثم تأخذها معها في نزهات على شاطىء البحر.

اقتربت الخادمة منها قائلة:

ـ هل من خدمة يا سيدتي؟

ـ شكراً يا عزيزتي سأذهب إلى غرفتي لأرتاح.

وفي موعد الغداء عاد «محمد» ضجراً، متجهماً يحمل

كثيراً من الأعباء على كتفيه، رمى بثقله على الكنبة يتحسس جبينه برفق، وضعت والدته ابتسامة كبيرة على شفتيها ثم استطردت بعد تفكير:

ـ اليوم اتصلت فتوح، وأظن من المناسب أن تردها الآن:

أشاح وجهه إلى الناحية الأخرى حيث النافذة المطلة على الحديقة وهو ينقر بعصبية على فخذه، صمت كأنه لم يسمع شيئاً.

ومضت والدته:

ـ يا ولدي عد بها إلى البيت.

تنهد عميقاً وقد نفذ صبره

ـ أنا لا أدري سر غيظها من ميساء، فالمرأة لم تفعل ما يسيء لها، فأكثر خناقنا يدور حول ميساء.

وبلين تفتعله الأم.

ـ إنها تحبك وتغار عليك ألا تفهم ذلك؟!.

تنفس الصعداء، بدا كمن ينفث دخان أعصابه المحترقة في الهواء

ـ لقد مللت، زهقت، بت لا أحتمل نقارها كل يوم.

وعادت والدته تلح عليه بتوسل:

ـ عد بها من أجلي فأنا أحبها وأحب أولادكما كثيراً.

يا أمي أنا الآن مشغول في حملتي الانتخابية، وأحتاج إلى شيء من الراحة والهدوء وبعدها عني سيريحني كثيراً.

تلفت محمد برأسه يميناً ويساراً ثم قال:

ـ أين ميساء؟

اجابت والدته بامتعاض:

ـ لقد ذهبت إلى غرفتها توا

ـ يجب أن أعتذر لها.

غضبت والدته وصاحت توبخه:

ـ تعتذر لها؟! عن ماذا؟ ما بك؟ ماذا دهاك؟ ماذا فعلت لكم هذه الحمقاء!! وبعصبية يدافع عنها:

يا أمي ميساء انسانة محترمة تتصرف بحكمة وعقل، إنها امرأة تستحق كل تقدير، لم أر فيها ما يثير المشاكل، بالعكس فأنا أراكم تنسجون حولها حكايات مفتعلة تسيء إليها.

كادت الأم أن تنفجر من الغيظ، فقد انكمش وجهها وبانت الغضون فوق جبينها، أحست أنها أهينت، عادت تسأل في غيظ:

ـ ماذا تريد منها الآن؟

شعر بانزعاج أمه، فأخذ يتململ في مكانه وثمة حرج يطوف بوجهه.

ـ لاستشيرها في موضوع الانتخابات فقد أبدت لي رأيها الصائب قبل يومين وأنا أحتاج إلى المزيد من أفكارها.

شدت الوالدة ظهرها واقفة تضرب بعصاها على الأرض.

ـ إذن لا تلم فتوح إن كانت تثير المشاكل حولك طالما جئت بمن تقوم بدورها، أطرق محمد يفكر، وسحابة من الضيق تطوف بوجهه، وملامحه تسبح بالحزن وشيء يشده إلى البعيد، فهذا الواقع الكئيب المفروض عليه يدفعه إلى التذمر والقرف منذ التقاها أول مرة، بدت مخلوقة ضائعة، تطل عليه من عينين باردتين وجسد فارع الطول تتكوم عظامه فوق بعض بعناد، كل شيء فيها يصر مستكبراً، تشمخ فتنتصب هذه العظام وتكاد تهوي فوق رأسه بحدة، كانت أمه تحدثه عنها فيما مضى وتفرط في وصف أخلاقها حتى حببتها إلى قلبه، فجاءت إليه لا برغبة وإنما بمزاج إنسان أرهقه الضغط والإلحاح. ففتوح من عائلة ثرية جداً عاشت بناتها وفي يدهن ملعقة من ذهب، أحبتها أمه لأن بينهما طباعاً مشتركة، أشياء كثيرة يتفقان عليها، ففتوح انسانة تجيد التمثيل والتملق وتعرف كيف تتلون وتتكيف مع الموقف الذي تقع فيه، فهمها محمد جيداً وخابت أيامه فقد

سقته المرارة طوال هذه السنين بحدتها وعنادها، فهو كان يبحث عن حياة رطبة جميلة تهيىء له أسباب النجاح في الحياة، وعندما دارت الأيام دورتها اكتشف عقدتها. عرف مرضها.. امرأة غير سوية، ليس فيها ما يدفع الرجل لأن يحبها أو يعطف عليها وقد تحملها من أجل الأولاد.

تخرجت فتوح من احدى جامعات أمريكا لكنها رغم هذه البهرجة العلمية انسانة فارغة من الأعماق لا تعرف كيف تتصرف.. لا تقدر على تقييم حديثها، كل شيء فيها هزيلاً، مريضاً، باهتاً، وهو رجل يخوض الحياة السياسية بقوة ويقرأ ويفكر ويناقش، وكثيراً ما أحرجته بحماقاتها حتى ذبل كل شيء يربطه بها، فعنادها وهن، وصلابتها ضعف، عيناها ميتتان تسبحان في فراغ ولسانها فأس قوي يحطم كل الأحلام الجميلة «أنت غير مؤهل للسياسة!» «أنت ضعيف» كلمات تطلقها كالمدفع الرشاش في وجه زوجها بقسوة وهي ما زالت تدوي في أذنيه.

أفاق محمد من خياله على صوت الباب يصفق بعنف، انتبه إلى هاشم يقف أمامه وهو يضع على المنضدة الرخامية ملفاً كبيراً:

ـ اليوم حدثت خناقة كبيرة في الجريدة.

انتبه محمد كمن يستمع إلى مغامرة مثيرة:

ـ هات ما عندك.

قال هاشم ووجهه منفعل تتطاير حبات العرق منه:

ـ المقال الذي كتبته اليوم عن الارهاب تعقيباً على استشهاد الشاب اللبناني الذي فجر نفسه في معسكر الاسرائيليين أثار غضب رئيس التحرير.

وفي دهشة سأله محمد:

ـ الأمر طبيعي جداً وقد أذيع في نشرة الأخبار أمس، فما هو وجه الغرابة؟

ـ صحيح لكني فسرت الارهاب بالمفهوم الحقيقي، إذ بينت أن الارهاب ما هو إلا مصطلح أطلقته الدول الكبرى على عملية الجهاد والثورة والدفاع عن الوطن، أومأ محمد كمن يتفق مع محدثه، بيد أن هاشم استطرد:

ـ قال: إن مقالك في مجمله لا يتفق مع سياسة الجريدة، فأثارني اعتراضه هذا وحاولت اقناعه دون جدوى، واحتد نقاشنا فلم أصل إلى نتيجة وعدت بالمقال إلى مكتبي.

تأفف هاشم متذمراً:

ـ فلنضع على أعيننا نظارة سوداء لنسير بغموض، ثم قطع حديثه ووجه سؤاله إلى محمد:

ـ بالمناسبة ماذا فعلت بحملتك الانتخابية؟

ـ شئت أن أحدثك في هذا الأمر، فهناك التيار الديني المعتدل يريد أن ينضم إلى مجموعتنا الوطنية، ونحن في حيرة لا ندري كيف نوفق بين هذه الأطراف.

قفز هاشم من مكانه وسحب مقعداً بالقرب من أخيه.

ـ محاولة عظيمة يا أخي، نتمنى أن تتفق جميع الأطراف على هدف واحد.

وباستياء يجيب محمد:

ـ النفوس يداخلها شيء من الريبة:

ـ ماذا تقصد؟

وبلهجة فاترة يقول محمد:

ـ المذاهب الدينية والسياسية متضاربة وإن كان اللسان يتفق إلا أن في الأعماق أشياء تبرز على السطح تنسف كل ما نرجوه.

بدا هاشم مشدوهاً لا يدري كيف يمسك طرف الحديث، فهو يعرف كانسان خاض تجربة الصحافة الويلات التي تثار من جميع الأطراف وتتلاعب بكيان المواطن، وهو يأمل أن يضع النائب مصيره بالصورة الصحيحة.

ـ لقد رشحتني المجموعة لأمثل تيارها المعتدل الوطني

الدعائية.

ـ أرى أن تعرّف نفسك بالناس الآن من خلال بعض الندوات وفجأة أشار هاشم بأصبعه إلى محمد:

ـ لكن أرجوك يا محمد تصرف بما هو في قناعتك، دعك من الشعارات التي يرددها البعض وهي خالية من المحتوى والمفهوم الصحيح.

ابتسم محمد ابتسامة ساخرة وهو يتذكر صوراً كثيرة يعيشها النائب في تناقضات واضحة بين معتقداته وأفعاله.

حضر الأخوان الآخران حسين وعماد مع زوجتيهما مع سرب الأولاد، وهم يندفعون إلى البيت، أشاعوا فيه جواً من المرح والحركة، كأنه جثة هامدة دبت الحياة فيه، وترامت الحقائب المدرسية على الكنبات ومنهم من يصرخ «أنا جائع، هيا أعدوا لنا الطعام» ومنهم من يطلق صفيراً في الهواء، وتهرول جدتهم مع الخدم في حركة سريعة لتحضير مائدة الغداء.

صاحت ناهد وهي تتفقد بعينيها أنحاء البيت

ـ أين فتوح؟ لم تعد إلى البيت؟

أجابها محمد بامتعاض:

ـ لا لم تعد.

وعلى الفور سألت فريدة بتخابث:

ـ ولماذا لم تعد إلى بيتها؟

ـ رمقها محمد بنظرة غاضبة:

ـ هذه أمور خاصة أرجو أن لا يتدخل أحد فيها.

إلتفت عماد إلى زوجته مشيراً إليها بعينيه أن تصمت، وفهمت الزوجة إشارته.

وجلس الاخوة يتحدثون عن قضية الانتخابات ويبدون آراءهم، لكن صوت حسين استفزهم:

ـ هذا كلام فارغ، فالذين يدَّعون الوطنية يستوردون أفكارهم من الخارج، هناك أصابع خفية تحركهم ويريد من خلالها جذب المتدينين.

صاح هاشم

ـ نحن نقصد المتدينين المعتدلين لا المتطرفين..

وتعلو صرخات حسين:

ـ ليس هناك اعتدال أو تطرف؟ الدين منتقى من منابعه الصافية والديمقراطية مفهوم رأسمالي لا يمكن دمجهما مع بعض.

حاول محمد أن يحتوي الموقف قائلاً:

المهم لكل شخص رأيه وتحليله الخاص.

صاحت أمهم:

ـ ألا تكفوا عن المناقشة، هيا، فالغداء جاهز.

جلست ناهد بالقرب من فريدة تتهامسان فيما بينهما وتستعرضان حادثة الأمس وتشرعان في تحليلها، كأنها مادة لذيذة تشبع نهمهما وفضولهما، فكل «كنه» تحاول أن تصنع لها مكانة في قلب الخالة وتبرز صورتها ناصعة مشرقة حتى وإن كانت في الواقع مزيفة، تتنافس ناهد وفريدة على خدمة الخالة:

تدفع ناهد طبق الرز إلى الخالة، وتضع لها السلطة «تفضلي يا خالتي أنا أخدمك» بينما تشدها فريدة إلى جانبها «طبق الكفتة بعيد عنك سأضع في صحني بعضاً منها لنأكل معاً، الخالة تبتسم لهما ابتسامات مزيفة تشدها بحبال من الصبر إلى شفتيها، جاءت ميساء مرهقة وثيابها مهملة ارتدتها على عجل.

انتبهت إلى مقعد فتوح خالياً:

ـ ألم تعد إلى البيت؟!

لم تلتفت إليها الخالة، حياها محمد ثم سحب المقعد وهو يقف إليها باحترام.

ـ تفضلي يا ميساء.

شردت ببصرها بعيداً. خطر لها خاطر

قال هاشم:

ـ ما بك ساهمة؟!

استطردت وهي تدير ظهرها إليهم:

ـ لا أجلس طالما مقعد فتوح فارغاً والتفتت إلى محمد:

عد بها إلى البيت يا محمد:

صمت الجميع، ذهلوا كأن على رؤوسهم الطير، لم يعد يسمع سوى أصوات الملاعق والأشواك تصطخب في الصحون وهمهمات الأطفال يقطعون الطعام بشراهة، تجمدت الخالة في مكانها، شعرت بأطرافها كلها جامدة والملعقة تضطرب بأصابعها ورموشها ترتعش فوق عينيها، إلتفت محمد إلى أمه يود لو تفهم سر هذه المرأة التي تعيش بينهم في ثوب واحد ولون واحد لأن هذا اللون نقياً، صافياً، ينبع من الداخل دون افتعال أو ارتياب.

وعينا ناهد تصطدمان بعيني فريدة، وهاجس الغيرة يصطخب في أعماقهما، وهما تحاولان تبديد هذا الوجوم بإثارة مواضيع شتى، انتبهت ناهد إلى ابنتها وهي تقفز من مكانها قائلة:

ـ سأذهب إلى خالتي ميساء لتمشط شعري.

الجزء الثاني

جلس حسين مطرقاً يلقي برأسه بين كفيه، تحاول ناهد جاهدة أن تعيد الهدوء إلى نفسه، أثارت مواضيع شتى لعله يفيق من هذه الهواجس التي تعصف بعقله، لكنه سئم إلحاحها:

ـ أرجوك كفى.

ربتت على كتفه لتهدّىء من روعه.

ـ الأمر لا يستحق كل هذا العنف، فالأخوة يختلفون في الآراء والأفكار وهذا لا يفسد الود بينهم.

تجهَّم وهو يستعيد في ذاكرته أفكار محمد.

ـ أخي يلعب بالنار، يريد أن يصنع كوناً جديداً يختلف..

قاطعته ناهد وهي تحدّق به.

ـ إن له رأياً في هذا وأظنه قادراً على إثبات ما يعتقد

أشاح بذراعه اليمنى ساخراً

ـ إنها حماقة

وفي دهشة تصرخ ناهد:

ـ وما يضيرك في كل هذا؟

صمت لا يدري ما يقول، إنه يرى في الخيار الديني التكامل الذي ينبغي أن يصل إليه الجميع، يتساءل غاضباً، لماذا يدور الناس في طرق ملتوية باحثين عن عصارات فاسدة نابعة من قصور الآخرين وعجزهم، كما ينظر إلى الدين نظرة فاترة ليس فيها تمحيص أو اعتبار، إنه اختار طريق الله سبحانه منذ سنوات الجامعة عندما التقى تلك الرفقة حيث جذبته في أول الأمر باسم القائمة المرشحة في الانتخابات وتعرض أثناء الفترة إلى زوبعة نفسية وحالة قلق مستمرة سرعان ما تبددت بالتأمل والتفكير، وعندما عاش معهم ومارس نشاطات استهلكت فراغه وصحته وقوته، كل شيء فيه ينسجم معهم لكنه تألم من بعض الحماقات التي حدثت باسم الدين، شعر في يوم من الأيام انه كان مبرمجاً، قوة مجهولة تحركه تبدد ملامح عقله، وسئم من التفكير، وجد نفسه يقع في متناقضات كثيرة، هذه الأحزاب التي تشكلت في الجامعة كان عليه أن يدرسها جيداً ويعايشها عن قرب ليحدد موقفه، فوقف أياماً يبحث في

الكتب الدينية والاشتراكية والماركسية، ثم انتهى إلى الرأسمالية والديمقراطية، ثم اندفع مزحوماً بهذه الأفكار إلى مناقشة القيادات، واتسعت الدائرة إلى خارج الجامعة حيث المفكرين والعلماء والباحثين والكتّاب، ناقش حتى وقع في حيرة كبيرة، هل كل هؤلاء الشباب يسيرون في طريقه عن قناعة، إنه يود لو يصفع واحداً تلو الآخر لينتبه حتى لا يكون إمَّعة، حتى هؤلاء الذين يسيرون في التيار الديني على حساب قناعاتهم يعيشون حلاوة الفكرة لا العقيدة ذاتها والاحساس النفسي العميق بها، ينبغي أن تعيشهم الفكرة حتى النخاع وبقي ليالي طويلة يستعر بلظى الحيرة تتقاذفه في كل جانب، ثمة شيء ناقص، هناك ثغرة كبيرة مختزنة تأبى أن تتضح، حاول أن يجذبها إلى نور الحقيقة، إلى حالة وضوح تمكنه من المعرفة لكنه يفشل، شيء مبتور أفكار باهتة، شعارات متدفقة كالسيل إلى الخارج لكنها غير مطبوعة في الأعماق، وعند منعطف الظروف السياسية وفوق شبهات الأحزاب المختلفة يلمح نوراً يشع من بعيد، شيئاً آتياً إليه يحتضنه بعطش، يمطره بقبلات الرحمة، يبلل وجهه بدموع الفرح، يسكب في فؤاده عواطف الرحمة واحساساً رهيباً بالمسؤولية، ويشك مرة أخرى بأن الذي كان فيه ليس إلا فكراً جامداً لا يسع إلاّ دائرة السرد دون الفعل، لكننا الآن نفعل شيئاً، نلعق جراحنا من جديد ونرسم ملامح الطريق منذ الصفر، وقوة تنبع من كل خلية، تتدفق في كل قطرة

من قطرات دمائنا، تجتاز الزمان والمكان نحو غد مشرق، حيث أزاهير الحلم تنتظرنا هناك تفتح إلينا ذراعيها الحانيتين، هذه الواحة البعيدة القريبة تقترب منا ونبتعد عنها، ولكننا نمسك بخيوط الأمل المدلاّة من سماء الرحمة، تنهد حسين وهو يبتسم انحنى يقبل ابنته الصغيرة فابتسامتها تشبه بسمة الغد الجميل، لا فرق. الطفولة والبراءة.

دخلت ابنته الكبرى. ندى وهي تشير إلى شعرها:

ـ ماما «انظري إلى تسريحة شعري قد صففتها لي خالة ميساء».

رمقتها أمها غاضبة فأخذت توبخها:

ـ ألم أقل لك أكثر من مرة عليك أن تطرقي الباب قبل الدخول على بابا وماما إن كانا لوحدهما.

تسمرت البنت في مكانها خجلة.

شدها حسين من يدها يقبلها.

ـ تسريحتك جميلة جداً فهل شكرت خالتك ميساء.

هزت رأسها وهي تطرق برأسها إلى الأرض.

قال حسين مشيراً إلى زوجته:

ـ خذي البنتين بعيداً عني لأستريح بعض الوقت.

تمدد في فراشه يشبك ذراعيه تحت رأسه، تدق في رأسه معاول الهموم، يود لو تصمت في رأسه، لو تهدأ هنيهة، لكنه تذكر تلك الواحة الخضراء البعيدة تمد ذراعيها إليه في شوق، وسكتت هذه المعاول وهدأت تلك المطارق وتراخى جفنيه وثقل النعاس في عينيه ليغط في نوم عميق.

بينما جرت الفتاتان إلى الغرفة الأخرى لتلعبا وناهد في حيرة، انها لا تدري ما تفعل، الفراغ يخط لوناً قاتماً في حياتها، ساعات كثيرة تمر وهي شاردة أمام جهاز التلفاز، تقرأ جريدة اليوم وهي تحتسي كوب الشاي، ثم سرعان ما تمل عيناها القراءة فتلقي بالجريدة وتعبث في قنوات التلفزيون بملل وتذمر، ترنو إلى جهاز التلفون تتمنى لو يتصل أحداً بها لتقتل الوقت، فكرت في أن تخاطب أمها الآن، لكنها تذكرت أنها نائمة في هذه الساعة، وهذا الوقت هو ملك الناس لتستريح فيه بعد الغداء.

يا إلهي ماذا تفعل النساء في أوقاتهن الضائعة، منذ أن تزوجت وأنا لا أعرف ما أصنع بنفسي التائهة، شردت ببصرها بعيداً كأنها تقتنص في هذا الزحام فكرة تشغل نفسها بها، لم لا أخاطب ميساء لأسألها، لأبحث معها مشكلتي، أنا مندهشة من أمر هذه المرأة التي تلازم غرفتها طوال الوقت، ألا تمل؟ ألا تسأم؟ ماذا تفعل؟! لا.. لا، انتفضت في مكانها «لا أحب أن أبدو أمامها ضعيفة» عادت إلى غرفة النوم، وقفت أمام المرآة

كثيراً، انزعجت، لقد بدوت سمينة أكثر من الشهر الذي مضى، فتحت خزانة الثياب واستخرجت كل ثيابها لتقيسها واحداً بعد الآخر ونثرتها على الأرض بعصبية «إنها ضيقة» بل ضيقة جداً، التفتت إلى حسين يغط في نوم عميق، تذكر نصائحه، حاول أن يرسم لها نموذجاً مثالياً لحياتها لكنها غير مقتنعة، تبحث عن إثارة في حياتها ولم لا، لماذا يلف هذا الجسد الجميل بذلك الكيس الأسود، انتبهت إلى صورتها في المرآة تستعذب جمالها الفاتن وحسنها الأخّاذ، فهي لم تتحرر بعد من عبودية جسدها، تبحث عن اشباع لهذا الغربال الأجوف، وهمس حسين في اذنها كثيراً أنت جميلة وفاتنة ولكن اصنعي من الداخل نوراً حقيقياً ليشع إلى الخارج أنت كالقنديل المنطفىء، سيملّه الناس بسرعة، تسللي إلى هذا الجزء القاتم لتشعلي فيه شمعة، عندما خطبها حسين في الجامعة لم يكن ملتزماً، كان إنساناً بسيطاً، لم يختزن بعد كل هذه العقد المتراكمة التي كبلتني بقيود والتزامات أنا أتضايق منها كثيراً، لقد تغير في السنوات الأخيرة وعجز أن يأخذني معه إلى دائرته، لكنه لطيف معي على أية حال. . أحبه وأتمنى أن يتحرر من هذه الأفكار التي تزعجه لقد التقينا منذ سنوات الجامعة الأولى، درسنا العلوم الإدارية وتخرجنا في دفعة واحدة وتزوجنا، عمل حسين محاسباً في إحدى الشركات وأنا باحثة ادارية في وزارة التربية، وذلك هو

الشيء الوحيد الذي اتفقنا عليه في بداية الطريق لكننا انفصلنا فكراً وهدفاً.

ناهد امرأة سطحية، بسيطة لا تصطدم بالآخرين وتحاول أن تلتقي بهم في نقطة مشتركة، العاطفة هاجسها الأول، لا يهم أنت ماذا تفكر أو تعتقد طالما هناك مشاعر ودية تخصني بها فلهذا أمنحك ثقتي وحبي، هذا هو مبدؤها في الحياة، لا تكترث بما يدور حولها فهي أسيرة أمنياتها وأحلامها، وتسعى جاهدة في كل مرة أن تكون في دائرة الضوء، أن تسلط عليها حزمة من نور لتتعرف على كل جزء من جمالها وتمتدح محاسنها، وان تجاهل الناس هذا الأمر تعلن عن نفسها عبر حركات وايماءات تتفنن في إثارتها، وقد تعب معها حسين كثيراً، بذل كل جهوده لاصلاح هذا الخلل في شخصيتها، فهو يعرف سر عصبيتها ونرفزتها التي غالباً ما تعود إلى زيادة كيلو واحد في جسمها، فالغضب يتجمع كله في كيانها وينصب عليه وعلى بنتيها وتحارب شهيتها وجوعها حتى تفقد هذا الكيلو الزائد.

هذه العبودية المفرطة للجسد ألهبت حياتها بنسائم شديدة الحرارة ومعارك سخيفة سرعان ما تنتهي بقهقهات ساخرة يطلقها حسين في وجهها قائلاً: «أنتن فعلاً ناقصات عقل ودين» يثير غضبها فتصرخ بعنف «ألا يهمك أن تكون لك زوجة جميلة ورشيقة»، يشير إليها ثانية وهو يمعن في السخرية «بل

أنت تفعلين ذلك لذاتك وليس من أجلي» ناهد أنثى جميلة تعيش من أجل هذا الجمال، حتى قراءة الكتب تحسبها نوعاً من مهام الرجال والادمان عليها يفسد عينيها الجميلتين، والقلق المفعم بعاطفة الحزن والهم يمتص النضارة والاشراقة من وجهها النضر، هكذا تحسب كل شيء في ميزان جمالها، شخصية يستعذبها بعض الناس ويجد فيها نوعاً من المتعة والراحة المؤقتة من مشاق الحياة، والبعض الآخر يلوي شفتيه بامتعاض، يحتقر هذا النوع من البشر الذي يعيش في ظل الحياة ويوهم نفسه أنه مهم ومبعث أهميته أنه يسر الآخرين باطلالته.

وتحير معها حسين، كيف يعالجها؟ومن أين يأتي إليها؟ إنها لا تتشكل إلا من حيث ذاتها، ففرض عليها الحجاب في وقت هي كانت فيه قمة في الأناقة والشياكة، كتم أنفاس هذا الجسد الذي عبدته وسخَّره تحت سطوة العقل والدين، وتعذَّب فترة مع صراعها المستمر بين عاطفة الجمال وواجب الدين حتى انتصر الواجب على العاطفة، إنه يشدها معه إلى القمة لكنها منهارة، متعبة مكدودة لا تريد أن تجتاز هذه الحدود المعقولة، وهي تعرف أنه ما زال معها يدوران في فلك التغيير والصعود.

العفه، النور، كلمات كان يرددها حسين على مسامعها، وأيقنت أنه ما فعل ذلك إلا لأنه يحبها، ويريد أن يحافظ عليها جسداً جميلاً ورأساً فاتناً، لا بد أن يصونها من عبث العابثين

فهي له وحده، وحسين رجل وسيم يتمتع بشخصية أخاذة تسحر أنوثتها وتشدها إليه، انها تريده كثيراً فهو ملاكها الحارس منذ كان في الجامعة، يغار عليها ولا يحب أن تتمادى في مخاطبة الآخرين دون مناسبة.

تأملته وهو نائم، كأنها تشرب حبه في عينيها، تحب أفكاره ومبادئه، وهي لا تعرف عنها شيئاً، تحبها فقط لأنها أفكار ومبادىء حسين، تحبها لأجله فقط، أحبته عندما كان حليق الذقن وتحبه الآن وهو طليق الذقن، إنه رجل مقنع تقطر الرجولة من ملامح وجهه، شيء يلمع في جبينه ككبرياء السيف وشموخه، انها لا تحب الرجل الضعيف الذي ينقاد وراء امرأته ذليلاً خائفاً يستجيب لرغباتها ونزواتها حتى لو كان يحبها، ولعل نقطة الاختلاف بينهما هي التي أشعلت في قلبها فتيل الحب.

انحنت تطبع على جبين حسين قبلة هادئة، وقفت أمامه، تتأمله بِوَلَهٍ ثم سحبت عليه الغطاء كأنه طفل تدلله أمه بحنان، انتبهت إلى رنين الهاتف، أسرعت الخُطى، رثت لحالها أهكذا يثير فيها الهاتف كل الفرح والحبور فهي بلا شك مجنونة، أو يائسة عجزت عن انقاذ نفسها الحائرة، وكان المتحدث فريدة.

ـ آلو

ـ أهلاً فريدة.

ـ هل ترغبين في زيارة فتوح مع خالتنا؟

ـ أجل

ـ إذن ارتدي ثيابك بسرعة والحقي بنا في الصالون.

ـ إلى اللقاء

ـ مع السلامة

وارتدت احدى ثيابها الملقاة على الأرض، ثم لفّت جسدها بجلبابها الواسع ولفت رأسها بحجاب من حرير وهرولت ذاهبة اليهما.

* * *

تسمر عماد أمام جهاز الكمبيوتر ثم سرعان ما انتقلت أصابعه نحو بعض الأزرار ليعبث به يتحسس مواطن الخلل فيه، ربما يستطيع اصلاحه، قفز من مكانه وشرع يبحث في أدراجه عن بعض الكتالوجات الخاصة بهذا الجهاز لعلها ترشده إلى مواطن الخطأ، وغرق في هذا العالم وسرح بخياله وهو يقرأ هذا الكتاب بنهم، إنه يعيش حياته فوضوياً عابثاً يضرب التقاليد والأصول الاجتماعية عرض الحائط، وكل ما يحدث حوله هو ضرب من ضروب الحماقة يختلقها الإنسان حوله، ولكنه أمام الكمبيوتر يتحول إلى راهب في محرابه تنتظم أمامه كل قوانين الكون، ينسى نفسه، ينسى زوجته وأولاده، ينسى كل شيء

وينعدم إحساسه بالزمن أمام هذا الجهاز، فتتذمر زوجته فريدة وكادت في يوم من الأيام أن تحطم هذا الجهاز، لكنها أقنعت نفسها أخيراً أن متعته في هذا الجهاز خير من أشياء أخرى تعافها النفس، انها نوع من الهواية، أصبحت على مر الزمن نوعاً من الاحتراف، إنه سعيد بهذا المقدار من الحياة، سعيد بهذه الصنعة، قانع بما يمنح له فهو لا يكترث بما يحدث خارج اطار حياته المحدودة، ويندهش كثيراً لمنطق اخوته ومناقشاتهم التي يعتقد أنها فلسفة جدلية لا تسمن ولا تغني من جوع، إنه الآن في عصر متقدم، عصر التكنولوجيا الزاحف إلى الأمام، منطق العقل والعلم، انهم يتكلمون كثيراً ويبحثون ويجادلون ثم لم يصلوا إلى شيء، بينما هو يجد الأمر يختلف تماماً، ثمة شرخ بسيط يفصلهم عنه، انهم يرونه إنساناً فوضوياً لا يعتقد بمبدأ أو هدف، وكثيراً ما دخل مع حسين في خصام ساخن حول عزل الدين عن السياسة لأنه يرى في الدين طقوساً خاصة مجردة عن واقع الحياة العملي ويقتنع إلى درجة أن يهمل محدثه وهو يناقشه في حماس، يتركه لاوياً بوزه غير مكترث كأنه أحمق لا يفهم شيئاً.

زوجته فريدة أول خصومه، وأول من استسلم لطبيعة حياته ومنطقه، هذه المرأة التي أصبحت كومة من الشحم بفعل اهمال زوجها لها فمتعتها الوحيدة هي الإدمان على أكل اللب أمام التلفزيون، الخادمة تقوم برعاية الأولاد، كل شيء أصبح

باهتاً في عينيها، واهنا في نفسها، ليس هناك ما يجمعهما، حتى الحوار انعدم لأنها لم تعد قادرة على فهم طبيعة زوجها، وبعد أن يئست منه اتجهت إلى المجتمع الذي يحيطهما لتدمج نفسها فيه وتستشعر أنها قريبة بعض الشيء من ناهد، تشكي لها بعض مشاكلها وتجد في الأخرى شيئاً قريباً منها، صدى مريحاً يزيح عنها سيل الآلام المتكومة في صدرها، إنها واحدة ضمن أربع نساء لكل منهن طابعها المميز، بيد أنها تفتقد إلى صورة أو اطار يميزها عن الأخريات، تحاول أن تبدو مرحة، خفيفة الظل لتغيير صورتها التي أصبح الآخرون يشفقون على سمنتها، كرهت نفسها، وكرهت سخرية خالتها منها، وعندما يضيق صدرها تأكل بنهم وتفش غلها بالطعام وتنطوي على ذاتها باكية حزينة، كانت تتمنى لو يمزق عماد هذا الصمت الرهيب ويعرب عن استيائه ويزيح هذا الستار القائم عن حياتها الهامدة، إنه لا يرى خلف نظارته سوى أبحاثه العلمية وجهاز الكمبيوتر، لا يشده في الحياة سوى هذا الجزء المحدد، وهي تحسد الأخريات في صمت تحسد ميساء لأنها امرأة متكاملة تثير الاعجاب، وفتوح هي زوجة الأخ الأكبر ومحط حب الخالة واعتزازها فقد حققت لها موقعاً مهماً في هذا البيت، وناهد جميلة تربي نفسها في طريق زوجها، «وأنا لا شيء سوى كيان لا أحد يحس بوجوده، أفتعل النكات والقصص لأضحك الآخرين وأنا أشدهم حزناً ومرارة» حاولت فريدة أن تتلبس

لباساً جديداً لتصنع شخصية جديدة لذاتها لكنها وجدت نفسها تتخبط كالعمياء في خطوات متعثرة، في كل يوم تقرر أن تكون جادة، تبتعد عن الثرثرة والمزاح، لكنها سرعان ما تعود إلى طبيعتها، وفي احدى المرات قرأت كتاباً ثقافياً وقررت أن تتحدث عنه بصيغة جديدة، بيد أنها وقعت مضطربة لأنها تتكلف الفعل، وجدت نفسها تتلون في كل يوم بلون، وفكرت دون أن تيأس أن تدخل المطبخ وتصنع الأكلات الجديدة وتتخصص في هذا الأمر، لكنها تذمرت في آخر المطاف، هل فقدت الثقة في نفسها؟ ما الذي يحدث لها؟ أقنعتها ناهد ذات يوم أن تتخلص من أكوام الشحم هذه لتعود امرأة فهي الآن ليست سوى برميل كبير من الاحباط واليأس يشفق عليه الآخرون، يجب أن تتغيري، عودي امرأة رقيقة، رشيقة، خفيفة الحركة، الآخرون لا يرونك إلا بعين الاشفاق، وهي تفكر لمن تفعل كل هذا، الرجل الذي يشاركها الحياة أعرض عنها وأدار ظهره إليها، الروتين، الرتابة، القسوة، هناك قساوة لا يحتملها الإنسان تكمن في بواطن الأمور وصغائرها، وقد لا يراها الإنسان بالعين المجردة.

الجزء الثالث

عادت فتوح إلى بيتها تشدها خالتها من ذراعها قائلة: «نورت بيتك يا فتوح» طأطأت الأخريات رؤوسهن إلى الأرض في ضيق، كأن الخالة توجت فتوح ملكة عليهن، تلفتت فتوح بعينين مضطربتين هائجتين إلى أنحاء البيت لا تدري ما تقول، كانت تأمل أن يستقبلها زوجها في لهفة، استاءت. .

قالت الخالة:

ـ اذهبي إلى غرفتك لتغيري ثيابك.

امتقع لونها وارتسمت على وجهها مسحة ألم، جلست على الكنبة، لم تكن هادئة، شيء يغلي في صدرها كالبركان.

طلبت الخالة إعداد الشاي.

جلست ميسناء أمامها قائلة:

ـ أرجو أن تعود المياه إلى مجاريها يا عزيزتي.

هزت فتوح كتفيها مستاءة «انها تريد أن تقطع الطريق على ميساء حتى تعزلها»، فهي تفتعل المشاكل وتضخمها لعل الأخرى تتجنبها، وفور أن أدارت ميساء ظهرها رمقتها فتوح بنظرة تقطر حقداً وغضباً فانها تقاوم كثيراً، لا تيأس، تخطط بذكاء لتستولي على القلوب.

هذه العاصفة لم تهدأ، وهذه النيران المستعرة لم تخبُ، لا بد أن تغادر ميساء البيت أنا لا أريدها هنا.

انتفضت فتوح من هذه الخواطر، تسمع خالتها تتحدث إلى محمد:

تعال لتتناول الشاي مع زوجتك.

لم تلتفت فتوح إليه، حاولت أن تبدو طبيعية، لكن صرخاتها الخرساء المتكتمة تشع من بريق عينيها، ازدردت ريقها بينما محمد جاء هادئاً، ألقى تحيته وجلس يضع ساقاً على أخرى كأن ليس هناك جديد، لكنه انتبه إلى عيني فتوح الثائرتين والآخرين ينتظرون بترقب، يستعدون لانفجار الموقف، صمت مطبق إلا من ضجيج الصغار وهم في طريقهم إلى الحديقة، تبرمت الأم من هذا الصمت فأردفت

ما رأيك يا محمد لو تدعو زوجتك إلى المطعم لتتناولا العشاء.

زم محمد شفتيه غاضباً، فحدق في وجه فتوح وهو يتساءل:

أنا لا أدري هل هناك بالفعل ثمة مشكلة؟!

سخرت فتوح وهي تصفق بكفيها

ـ برافو يا حضرة النائب، دبلوماسية عظيمة، انسحاب تكتيكي.

تمالك محمد غضبه وهو يرد عليها بنفس لهجتها:

ـ الحمد لله وشهد شاهد من أهلها.

صرخت فتوح في ضيق

ـ أنت دائماً سلبي تنسحب حينما تتعرض إلى مشكلة كالنعامة تدس رأسها في التراب، متغطرس، متكبر.

قهقه محمد بأعلى صوته ليثير غيظها أكثر بينما الأم سامدة، مبهورة، لا تعرف وجهتها في التصرف، فهبت فتوح واقفة بعنف وهي تطلق كلماتها مدوية حارقة.

الإنسان الفاشل في حياته الخاصة لا ينفع أن يمثل الآخرين في مجلس الأمة فخير لك أن تعتزل العمل السياسي.

فرت هاربة بينما محمد يصفق ساخراً، يحيّها ساخطاً

ذهل الجميع راح يحدق بعضهم ببعض، أطرقت الأم تفكر ساخطة، تلعن حظها العاثر، توبخ نفسها، تتمتم بكلمات باهتة لا معنى لها.

جاء هاشم يحمل بعض الأوراق يقصد شقيقه محمد، جلس وهو يقول:

ـ أعـددت لـك بعـض الأفكـار المهمـة لاثـارتهـا فـي محاضرتك الاسبوعية.

اعتدل محمد في جلسته:

ـ جيد

واصل هاشم حديثه:

ـ في الواقع قضيت أنا وميساء ليلة أمس في إعداد بعض الاقتراحات التي قد تفيدك مثل موضوع الوحدة بين المذاهب وحل المشكلة الطائفية، كذلك طرح قضية مشاركة المرأة في البرلمان وحل مشكلة البدون جنسية.

هز محمد رأسه بايجاب ثم قال مقاطعاً:

أنـا أفضـل أن أعقـد نـدوات أستـدعـي فيهـا متخصصيـن وأساتذة لمحاورتهم.

وقف هاشم وهو يدفع هذه الأوراق لأخيه قائلاً:

ـ لا بأس في هذا، المهم اقرأ كل شيء، فأنا الآن على موعد مهم.

انصرف هاشم، انتبه إلى الصغار وهم يلعبون في فناء البيت يقفزون في فرح ترتسم على وجوههم ضحكات بريئة، كم تمنى لو كان له طفل ينط هنا وهناك يرتمي على صدره، يقبله، يلثمه، تنهد وهو يطرد هذا الخاطر من رأسه، قاد سيارته، لمح ساعته، كانت تشير إلى الخامسة مساء، فقد تأخر نصف ساعة عن موعده، أفكار كثيرة تقفز إلى رأسه تحتاج إلى تنسيق، لا بد أن يقرر ويحسم موقفه بشأن رئاسة الملحق الجديد الذي ستصدره الجريدة والتخلي عن الأبواب اليومية التي كان متخصصاً فيها، وقف أمام فندق الشيراتون، ترك سيارته بجانب أحد الأعمدة الخارجية المنصوبة خلف الفندق، ثم جاء يجري ليلحق بالمؤتمر الصحفي الذي عقد لسفير احدى الدول الكبرى، كانت القاعة تضج بالحضور، صحافيين من كل مكان، اتخذ له مقعداً في الصفوف الخلفية، بدا أن الحديث قد اتخذ شوطاً كبيراً، فالحديث كان يدور حول قضايا أمنية وعسكرية، ثم اتصلت بموضوع الإرهاب والجماعات الاسلامية، كان يصغي بتثاقل لكل ما يدور حوله، إنه حتى لو وجه سؤالاً سيعرف الجواب مقدماً، فالصمت في هذا الزمن هو خير من كلام ينبغي أن يقال دون قناعات نفسية، فمن الذي فجّر

هذه الكتلة المتورمة من القيح والصديد والدم الفاسد، والتي كانت تتضخم كل يوم، ويزداد الألم، وهذا الجسد يصرخ آه من الوجع، يجب أن تصمت أن تسكت، أن تحتمل هذه الدمامل الكبيرة لأنها تطهّرك وتجلب لك السعادة والعافية، دعك من هذا الهراء، إنهم يطهّرون جسدك من لعنات العدم، ولكنك تتقلب في مضجعك، هذه الورمات أصبحت أزمة تكاد تصهر جسدك في حرارة قاتلة، أراك تقترب نحو منطقة محظورة وهذه الورمة الكبيرة قد انفجرت رغماً عنك، شيء في داخلها قد تضخم، لا بد أنك قد ارتحت الآن ، لعل المشرط المؤلم هو دواء الداء، السكينة، الطعنة، الجرح كلها قد تلاحمت مع ألمك، والسيل الدامي. وهذا القيح الأصفر يحصد الرؤوس والرقاب في طريق العلاج المر، أراك ارتحت الآن، وتنهدت قواك رغم كل اللعنات التي تطلق وراءك. تحمل في كفيك خنجراً لتفجر دماملك المتورمة، لترتاح، نعم هذا هو حلك الأخير، قد كنت تتعاطى المسكنات والمهدئات لفترة، يسكن ألمك لكنه متعمق في جسدك ينخره، حتى العظم حتى عزمت أن تحمل المشرط وتمزق كل هذه الجروح.

ابتسم هاشم وهو يقرأ كل ما يكتبه قلمه النازف في لحظات شرد فيها، التقى أحد زملاء العمل فور أن انفض الجمع، حياه بفتور:

ـ كيف حالك يا محمود.

أطل عليه بنظرة فاحصة، لزجة

ـ بخير، بخير.

انه مندهش كثيراً لهذا النوع من الأشخاص، يتسابق مع الزمن من أجل ايقاع الآخرين في فخ الهزيمة، وقد اختصر الاخرين في شخص واحد، هو هاشم، تجاهله، داسه تحت أقدامه، لكنه يحيا على نسج الأكاذيب والحكايات المفترية لايقاع هاشم لأنه رجل مغمور قد سقط في بئر حقده المتعفن، يتآكل من الأعماق، تطالعه كل يوم مقالات هاشم الناجحة وتجاوب المجتمع الفكري مع هاشم، فهو يسعى إلى الصعود، ليبحث عن خبطة صحافية كبيرة تقفزه إلى فوق، بيد أن الاخرين يسبقونه إلى كل شيء جديد، فصب جام غضبه على هاشم، وكلما احتدت غيرته تظاهر بالحب والصداقة له، لكن هاشم يعرف جيداً ويفهم كل ألاعيبه المستترة، ويحاول أن يتجنبه ويتحاشى ضحكته الصفراء التي يتحسسها عن بعد، هذه الضحكة لها رائحة كريهة تضغط على أعصابه وتوتره، لهذا فهو يبتعد آلاف المسافات، حتى لو زحف إليه محمود ليقترب منه ليطمئنه إلى غريمه أنه بقربه الآن يحصد النجاحات البعيدة التي تثير غيرته.

لملم هاشم أوراقه وفر هارباً إلى الجريدة حيث مركز عمله، وكانت هناك أعمال كثيرة تنتظره، رئيس التحرير يزبد

ويرعد، فقد حدثت أحداث جديدة خلال هذه الساعة والتغطية الصحافية غير كافية، وفور أن دخل هاشم ألقيت عليه هذه المسؤوليات، كان مكتبه بانتظاره، أوراقه مبعثرة، قصاصات متناثرة، كلمات رئيس التحرير تدوي في رأسه، خذ المصور واذهب إلى الجبهة فقد ذهب وزير الداخلية لتفقد الجيش «سمعت أن أحد الوزراء قد قدم استقالته» غربال من الأخبار المتناثرة تضج في رأسه، كيف يرتبها؟ كيف يعدها؟ طلب فنجان من القهوة، أشعل سيجارته، ثم أعد قائمة بالأعمال التي سيقوم بها هذا المساء، تذكر أنه لا بد من اخطار زوجته بتأخره في العمل، التف حوله بعض الصحافيين الذين يتولى قيادتهم لمشورته في بعض ما كتبوه.

كانت ناهد وفريدة جالستان في الصالون تتفحصان بعض المجلات القديمة التي أحضرتها فتوح من بيت أهلها، توقفت عينا فريدة على احدى عارضات الأزياء مبهورة، تتقطع كمداً وحزناً قائلة لناهد:

- انظري يا ناهد هذا الفستان وهذا الجسد الرشيق، لقد أصبحت أمقت نفسي.

اعتدلت ناهد في جلستها وهي تحدّق بصاحبتها طويلاً:

لقد سمنت كثيراً، ما رأيك لو تشاركيني النادي الرياضي

في أسى ملتاع تجيبها:

ولمن أفعل كل هذا، لقد أهملني عماد، بل عافني

ما الذي حدث لكما؟

لا أدري ما أصنع، صدقيني وجودي وعدمه واحد في حياته

ازدردت ناهد ريقها، شيء كامن في نفسها تود الإفصاح عنه لكنها محرجة، حاولت أن تمهد الطريق لتقول شيئاً بيد أن صاحبتها فهمتها فأسعفتها:

قولي ما عندك

أشعر أنك امرأة باردة العاطفة، ربما قد مل عماد عشرتك فركز كل ما عنده ناحية عمله.

في برود حزين تجيبها فريدة:

ـ وماذا أفعل، لا أعرف كيف أعبر له عن عواطفي، إني أحبه في قلبي وأخجل أن أفصح عن هذا...

ضحكت ناهد، ضحكت من كل قلبها هاتفة:

ـ ما أجملك يا فريدة وأنت تمثلين دوراً غرامياً مع زوجك

قالت يائسة:

يكفي هذا الحد، فلأقبل بواقع حياتي

وتنذرها ناهد بذكاء:

إن قبلت أنت فهو لن يقبل، الرجل قلبه حي، وربما يبحث عن أخرى وأنت مغمضة العينين.

انتبهت فريدة بدت كمن تقرصها أفعى، صغت باهتمام:

وواصلت الأخرى حديثها:

لا تأمني لأي رجل

صمتت فريدة طويلاً، تحدق في فضاء الغرفة، تتذكر وتمعن في التفكير حتى استقر حالها فعادت تقول:

ما سر صمته وغيابه عني، أهكذا يفعل الكمبيوتر به، ينسيه حتى وجودي توسوس ناهد في أذنها كالشيطان:

ألا تشكين أن هناك امرأة أخرى في حياته؟!

انتفضت فريدة، لسعتها هذه الكلمات لسعات حارة، واضطربت الهواجس في رأسها، تتمتم بذهول «أيعقل هذا؟!»

لا.. عماد ليس من هذا النوع من الرجال! لا، لا، لا أظن هذا.

وتؤكد ناهد؟

ابحثي في هذا الأمر.

فغرت فريدة فاها بسذاجة.

وكيف؟

هناك امرأة عجوز اسمها «أم الخير» تستطيع أن تقرأ لك فنجاناً أو ترمي لك الودع، فهي معجزة عجيبة معروفة بين الناس، كم من علاقات زوجية مهترئة أصلحت على يديها، وكم من امرأة عاقر حملت بفضل بركتها إذهبي إليها وتحسسي سر اهمال زوجك لعلها تعطيك وصفة جيدة لاصلاح أمرك.

تسمرت فريدة في مكانها مبهورة الأنفاس، قد أحست بشيء من الإرباك يدفعها بخوف ورجاء نحو هذا الطريق، واحساس لذيذ يشدها إلى كشف المستور، يتنازع في صدرها الأمرين وتحتاج إلى دفعة قوية لأن تسلك هذا الطريق لكنها خائفة بل تحس بالرعب.

قالت متلعثمة:

وو.. كم.. تأخذ هذه المرأة؟!

تجيبها صاحبتها بخبث

فقط خمسة دنانير.

ابتلعت فريدة ريقها، لفتها الحيرة في وجوم، ثم عادت تسأل:

خذيني إليها، لنتسلى فقط..

ابتسمت ناهد تهنىء نفسها على ذكائها

ـ غداً الساعة الرابعة مساء نذهب إليها.

جاءت ميساء تحمل في يديها الغسيل تنادي الخادمة التي لبتها النداء على الفور.

ـ خذي هذه الثياب وانشريها على الحبل لتنشف.

ثم انضمت إلى الجالستين، صبت لها فنجاناً من الشاي وجلست، انتبهت إلى وجوههما.

ما بكما ساكتتان، هل قطعت حديثكما.

قالت ناهد مبتسمة لفريدة:

لا.. كنا نبحث في مشكلة وانحلت:

ارتشفت رشفة من الشاي متسائلة:

مشكلة تخصكما معاً

أجابت فريدة على الفور:

كنت أشكي لها من سمنتي

تأملتها ميساء مشفقة ثم أردفت

ما رأيكما لو نتمشى كل يوم ساعة، لنبدأ من هذه الليلة.

استجابت فريدة فرحة:

أتمنى ذلك ليتكما تشجعاني.

وتسأل ناهد بتخابث:

ألا ندعو فتوح لتشاركنا هذه الرياضة الممتعة :

فهمت ميساء قصدها ، فقطعت عليها الطريق .

أنا كنت سأقترح عليها هذا الأمر قبلكما لأني أريد كسب محبتها

وأرادت ناهد أن تلعب على جميع الحبال فقالت :

ـ دعك منها فهي امرأة معقدة تحب المشاكل ثم انها في سن أكبر من سننا ولا تستطيع أن تنسجم معنا .

أحست ميساء بما يدور في خلد ناهد فاستطردت :

مهما كان خلافنا فنحن عائلة واحدة، ولا بد أن نتحد ونسعى لأن يحب بعضنا بعضاً .

كانت فريدة تتأمل بعينيها الساذجتين ميساء وتزداد اعجاباً بها وايماناً بمبادئها، هذه المرأة البسيطة التي تتصرف بذكاء ولباقة وتعرف كيف توحد قلوب الناس بالمحبة والوئام، ربما قادرة هذه المخلوقة على حل مشكلتي وتتحسس معاناتي أكثر من غيرها .

وجهت ميساء حديثها إلى فريدة :

أردت أن أعطيك بعض مقالات هاشم ليصفها عماد على الكمبيوتر

تهلل وجه فريدة:

هاتيها

غابت ميساء عنها، لترشقها ناهد بأوصاف سيئة ونعوت مزعجة بينما فريدة تلومها «إنها لا تستحق منك كل هذا الكلام. . فهي انسانة محترمة».

تلوي ناهد شفتيها في قرف:

تعطي لنفسها حجماً أكبر من حجمها الطبيعي.

عادت ميساء بعد قليل وهي تدفع الأوراق إلى فريدة

اقرئيها إن أردت حتى عندما يسألك عماد عن ماهيتها تعرفين محتواها.

هزت فريدة رأسها بايجاب وتود لو تقبّل ميساء على هذا التقدير الذي تمنحه لها.

رن جرس الباب فهبت الخادمة تفتحه، فقد كانت الخالة أم محمد عائدة لتوها من الطبيب مع ولدها حسين، تلهث وتئن من ألم قلبها، أجلسها حسين على أقرب مقعد وتحمَّدت كناتها على سلامتها، بينما قدمت لها ميساء كوباً من الماء. .

قالت ناهد وهي تقترب من زوجها تسأله:

ماذا قال الطبيب؟

قلبها مجهد بعض الشيء، وتحتاج إلى الراحة.

تفقدت الخالة بعينيها الوجوه فسألت لاهثة كمن تفتقد أحدهم

أين فتوح؟

أجابت فريدة:

ذهبت مع زوجها إلى السوق.

شد حسين ساق أمه ليفردها على الكنبة قائلاً:

مدي ساقيك يا أمي لترتاحي.

تركت ميساء مكانها ذاهبة إلى المطبخ

سأعد لكم العشاء.

ورافقتها فريدة «سآتي لأساعدك».

وما هي إلا لحظات حتى عادت فتوح وزوجها يحملان أكياس المشتريات.

سحابة من الضيق ترتسم على وجه محمد حاول أن يبددها فور أن التقطت عيناه أمه مسجاة على الكنبة، وضع الأكياس جانباً وجلس على طرف الكنبة يتحسس بكفه وجه أمه مذعورا:

هل أنت مرهقة يا أمي؟

تنهدت الأم وهي تسحب الكلمات غصباً من جوفها

لقد عادت الأزمة القلبية مرة أخرى.

شدها من ذراعها:

قومي إلى فراشك فذلك أفضل

رفضت متململة

لا عليك أنا أرتاح هنا معكم

جلست فتوح إلى جانبها غارقة في التفكير، تشم من بعيد رائحة غريبة، تحس بتلك القوة التي تشدها عندما تنتكس، بل تهوي إلى الأرض، نسيت كل شيء، عذابها، خلافها، يعيش في صدرها احساس كبير بالضعف، بسقوط الخالة التي تمنحها مركزاً حيوياً في العائلة، انتبهت إلى صورة خالتها غارقة في الألم:

أراك ساهمة يا فتوح:

انتبهت فتوح من شرودها، ازدردت ريقها لا تعرف ما تقول:

الأمر غريب يا خالة، لا أطيق أن أراك راقدة.

وفي صوت واهن فاتر تجيب

لم أعد أحتمل مشاكلكم وخلافاتكم.

نظر محمد إلى زوجته بعينين لائمتين تغرقانها بالعتب المر ثم التقط طرف الحديث ليسوي الأمر:

ـ يا أمي لا يوجد بيت في العالم يخلو من المشاكل، المهم أنت، حافظي على نفسك من أجلنا.

عادت ناهد تحمل بطانية سميكة تلقيها على جسد خالتها ثم لحقت بصاحبتيها إلى المطبخ، التقطت أذنيها قبل أن تخطو خطوتها الأخيرة صورة فريدة تبث مشكلتها إلى ميساء قائلة: «يئست منه، لم أعد قادرة على فهمه، إنه رجل غامض»، حاولت أن تصغي إلى محدثتها الأخرى لكنها لم تستبن إلا كلمات متقطعة فصوت ميساء كان أشبه بالهمس، غضبت ناهد، شيء من الغيرة يضج في صدرها، افتعلت ابتسامة ودخلت المطبخ قائلة: هل أساعدكما في شيء؟!

قالت ميساء:

لقد انتهينا أعدي المائدة فقط

خرجت ناهد ثائرة، غاضبة، تتكتم هذه المشاعر، فهي تحتاج إلى كل قوتها لتبدو هادئة، أشارت إلى فتوح بعينيها تستدعيها إلى إعداد المائدة، وقفت الأخرى بجانبها، فهمست ناهد في أذن فتوح

ميساء تعد لنا العشاء.

تجيبها فتوح بلهجة ساخرة ممزوجة بالغضب:

حتى تتظاهر أمام الآخرين بأنها مثالية وأفضلنا جميعاً

تستطرد ناهد وهي تضع الملاعق على السفرة وجسدها ينتفض من الغيرة.

إنها تخطط يا عزيزتي وتعرف كيف تستخدم المواقف لصالحها.

برقت عينا فتوح والحسد يأكل قلبها ناراً:

اصبري علي، أنا أعرف كيف أطفشها من البيت.

جاءت ميساء وفريدة تحملان الأطباق لتضعاها على المائدة، قالت ميساء تحيي فتوح

أهلا فتوح، كيف حالك؟

ترمقها فتوح بنظرة حادة، خاطفة

أهلاً.

جاءت إلى خالتها تتفقدها

كيف أمسيت الآن؟

تتقلب الخالة في مضجعها

متعبة قليلاً

هل أحضر لك العشاء هنا؟

لا . . لا أريد العشاء .

سأعد لك كوباً من الحليب والبسكويت .

ذلك أفضل .

كانت نظراتهن تتعقبها في تحركاتها وتثقب كل خلية في جسدها وتحطم هذه العظام التي تحرك هذا الجسد، ليتها مشلولة، فلتقبع في دارها صامتة، إنها تفرض علينا نفسها بتغطرس، متعالية، مغرورة، تظن نفسها المسؤولة عن هذا الجمع الكبير، ونحن رهن إشارتها، فلتخسأ هذه اللعينة .

وقفت فتوح فوق نار مشتعلة تستعر في كل أعماقها وتكاد تحرقها بهذا اللهب الحارق، التفتت إلى زوجها وهو يحدق بميساء وهي كالفراشة الهائمة تحط رحالها هنا وهناك لتخدم الناس وتمنحهم الدفء والرعاية .

انتهت المائدة والتف الجميع حولها إلا هاشم .

وجه محمد سؤاله إلى ميساء :

أين هاشم؟

سيتأخر هذا المساء فهو مشغول .

قالت فتوح وهي تلتهم الطعام :

طعامك لذيذ يا ميساء يبدو أن لك خبرة في هذا المجال.

أجابت ميساء بثقة.

الطبخ من مهام المرأة الضرورية.

استطردت فتوح ثانية وهي تهز كتفيها بغرور:

ليت أمي علمتني هذه المهمة، فقد كان في بيت أبي طباخين وخدم وكنا نعيش في بحبوحة من العز والدلال.

أجابتها ميساء:

الأمر جد بسيط وليس فيه ما يتنافى مع العز والدلال، كلنا عشنا مترفين، لكنني بصفة شخصية استمتع بالطبخ كهواية رائعة.

ربما قضيت مرحلة من عمرك في المطبخ

وتقول ميساء دون أن تهتز أو ترتبك:

لا ضير في ذلك، بالعكس فأنا أفتخر بهذه الخبرة.

وابتسمت فتوح ابتسامتها الصفراء.

إذن سنخصص لك المطبخ لتمارسي هذه الهواية.

رفع محمد رأسه وهو يتناول الطعام بشراهة:

في حياتي لم أتناول طعاماً بمثل هذا الطعام اللذيذ.

تعنفه فتوح:

أنت لا يهمك إلا بطنك.

قال حسين:

فعلاً ميساء تستحق الشكر لهذا الطعام.

بينما عماد سارح في تفكيره، يمضغ دون أن يلتفت إلى الآخرين كأنه يقيم في عالم بعيد.

التفتت ميساء إلى فريدة

هل أعطيت المقالات لعماد؟

الآن بعد العشاء.

كانت ثمة عينان شاردتان تحومان في وجه فتوح وميساء تبحثان عن معركة تصل إلى الذروة.

قالت ناهد ملتفتة إلى ميساء:

سنتمشى بعد العشاء، أليس كذلك؟!

نعم كما اتفقنا.

صمتت، عرفت كيف تلقي البذرة لتسقيها الظنون والوساوس المشتعلة في قلب فتوح، إنها تبرمج برامجها من وراء ظهري، تتجاهل وجودي، ترميني مع المخلفات، هذه البائسة العقيم، أود لو أجرحها، أحطمها، فقالت وهي تتصيد

فكرة من بنات أفكارها المريضة:

ـ هذه الأيام يتأخر هاشم كثيراً، بل أحياناً يصل في حدود الثانية صباحاً.

وبهدوء تهتف ميساء:

إنه مشغول نتيجة الأحداث السياسية المتلاحقة في البلد.

تمضي فتوح

وهل تصدقين هذه الأعذار؟

أنا أثق بزوجي

تسخر فتوح

الخوف من هذه الثقة يا عزيزتي

وتسخر ميساء

إنه سعيد ولا ينقصه شيء.

تقهقه فتوح:

حقاً؟! لا ينقصه شيء.. ربما صدقت.

قامت فريدة من مكانها فور أن غادر زوجها المائدة ذاهباً إلى شقته لتقدم له الأوراق، واستأذنتها ميساء قائلة لناهد:

عندما تقررنان سألحقكما على الفور لنتمشى، ثم التفتت إلى فتوح

كنت أنوي أن أدعوك إلى هذه النزهة فصحبتك تسعدنا . .

هزت كتفيها معترضة :

كيف أتمشى وأترك خالتي مريضة لوحدها ربما تحتاج إلى مساعدة .

إذن نؤجل النزهة هذه الليلة حتى يوم آخر .

قطبت فتوح جبينها في حنق .

اذهبي لوحدك وتصرفي بنفسك لم تحشرين الآخرين معك .

تنفست ميساء الصعداء وكل جوانحها تخفق باضطراب وقلبها المجروح يكاد ينفجر لفرط الصبر .

سنؤجل نزهتنا هذه الليلة لأني نسيت أن أستأذن من زوجي هاشم .

انصرفت وهي تجر وراءها حبلاً ثقيلاً من المعاناة .

الجزء الرابع

كان شيء أشبه بالعاصفة السوداء تهب على هذه المدينة لتخيف الناس وتزلزل كيانهم، أصبح الهم هنا مشتركاً موزعاً بين الناس كالقوت اليومي، الخطر يرقص على أبواب المدينة ويدق طبول الفزع، وتأتينا من بعيد همسات غامضة مبهمة المعنى تعربد فوق أنغام الخوف وتنتشي برائحة الدنانير، والأفراد كرة مستديرة تقذفها الأقدام العملاقة وهي لا تدري ولا تعرف سوى أنها مستديرة قابلة للركل.

فللحرية مسافات بعيدة بعيدة لا يقطعها إلا صاحب الهدف السامي، صاحب الكلمة يقبع في زاوية عتيقة مقهوراً محبطاً لا يعرف وجهته الصحيحة، وصاحب المبدأ فقد حماسته وحرارته فالكل هنا يقول ويكتب ويعترض ويحاجج، لكن الخارطة بقيت كما هي لم يتغير فيها شيء.. كان حسين

متحمساً إلى دفع أحد الأعضاء الإسلاميين ليخوض تجربة الانتخابات، الناس في حالة ذهول لأن خطوطاً متشابكة تجرهم إلى مقاصد كثيرة، فالاسلاميون يصرخون صرخة الانقاذ لأن الواقع وصل إلى مرحلة الهبوط المر ولا تنتشله سوى أصابع الرحمة القادمة من السماء وعقدت الندوات الدينية التي تطالب بالتغيير الجذري للمجتمع، وانقسم الاسلاميون على أنفسهم ثمة من يفصل السياسة عن الدين وثمة قائل بضرورة دمجهما مع بعض لصعود الأفراد إلى ذروة الصلاح والرشاد. وخلف هذه الخطوط برامج وأنظمة منسقة تنتظر الفرصة السانحة لتفجر كوامنها المخبوءة، بيد أن هناك من يرفض هذا الدين ويحسبه عنفاً يمزق ابتسامة الإنسان ويحولها إلى صرخة شديدة تنسف السعادة الموهومة التي يتشبث بحبالها اللاهثون وراء تراب الدنيا، يقف هاشم متفرجاً أمام المهازل التي تحدث هنا وهناك ماذا يكتب وكيف يكتب ولمن يكتب؟ فهو من سنين يراوح بين الصعود والهبوط يضع عصارة فكره فوق أكوام المزبلة، هل يمسخ شخصيته الحقيقية ويستبدلها بأخرى ملونة تصطبغ بصبغة قابلة للتشكيل على حسب المرحلة التي يقفز فيها، الصراع الذي يخوضه في الجريدة وهو يعرف أن هناك الآفاً من الخناجر تكاد تطعنه من وراء ظهره، هؤلاء الأقزام الذين جاؤوا في الأيام الأخيرة وقفوا على أكتاف العمالقة ليتصدروا الجريدة بأسمائهم وعناوينهم ليعرفهم الناس ويدقوا لهم طبول الفرح.

حتى هذه القصائد التي تكتب بأسماء لامعة خلّفت وراءها موهبة يتيمة اشترى ذمتها هذا الإنسان الوصولي مستغلاً حاجة الآخر، إنه مرهق متعب في كل يوم يدخل معركة نفسية حادة تصارع ذاته وقيمه، فالآخرون يتشدقون بمفاهيم رنانة وهو يعرفهم جيداً، بل ويعيش واقعهم ويفهم أن الصورة عكس الجوهر بينما هو لا يعرف أن ينسلخ عن جلده ويستبدله كل يوم فهو يغرق في التفكير ويحاول أن يبعثر ما يؤمن به بين السطور مبهماً، منطفئاً، الحقيقة المرة التي يجهلها الناس، يظنون أن حياتهم ستبقى رائعة، لذيذة، ذات نكهة شهية، إنه فقط يريد أن يصفع صفعة قوية وينسحب، هذا النزف الطويل الذي يراق على السطح يضعفنا وسيؤدي بنا إلى الهزال، هذا الدم النازف من جوف الحياة سيحولها يوماً إلى بيوتات طينية قائمة على أعواد يابسة وأجساد هزيلة تبحث عن الفتات المبعثر هنا وهناك ويواجه حسين في يوم ما.

نحن أبواق فارغة تتكلم فقط.

ويشير إليه حسين كأنه يوجه إليه لوما:

لأننا ابتعدنا عن الدين يا عزيزي، شطبنا نظامه ودستوره من حياتنا، صار مجرد طقوس وعبادات، ولا نعود في كل قضية إلى الحكم الشرعي.

هذه الدول تعقد معاهدات الصلح مع اسرائيل دولة بعد

دولة والشعوب موافقة لأنها تريد أن تأكل وتعيش وتنام بعيداً عن الحرب واراقة الدماء.

يصرخ حسين بعنف:

ان لم تراق الآن فهي ستراق في النهاية، لأن اسرائيل استوعبت كل شيء وعرفت ضعفنا فاحتوتنا دولة بعد دولة وهيمنت على اقتصادنا وفكرنا وخبزنا ونحن لم نسأل ما هو الحكم الشرعي في هذا؟!

هذه مسألة تخص العلماء الكبار.

ولكننا مسؤولون أمام الله سبحانه عن هذه التخبطات، انظر إلى بيوتنا وحياتنا ونسائنا، أحس أن اسرائيل هيمنت على نفس المرأة التي تعيش معنا في البيت فهي تنفذ مخطط اسرائيل نفسياً ودون وعي منها، النفاق الصغير الذي يعيش في أسرنا ما هو إلا أثار النفاق الكبير الذي يحكمنا ويبرمج حياتنا.

يقاطعه هاشم ساخراً:

النفاق.. النفاق حدّث ولا حرج، نشمه في كل ركن في كل زاوية في كل همسة في كل خطوة، حتى حياتنا أصبحت كذبة كبيرة، حتى يخيل لي وأنا أرى زميلي وهو يمازحني يلقي قناعاً يتخفى وراءه حتى لا يفتضح أمره.

ويمضي حسين ساخراً هو الآخر:

المؤامرات النسوية الصغيرة التي تحدث في بيتنا هي أشبه بالمؤامرات الكبرى التي توقع الناس بعضها ببعض.

قهقه هاشم:

ماذا تقصد؟

يا عزيزي أنا أحس بتحزبات زوجاتنا داخل البيت، الشر ضد الخير والفوضى السائدة.

بحلق هاشم في وجهه طويلاً يكاد لا يصدق:

أظنك كنت تجهل هذه الأمور ولا تعيرها أهمية.

تنهد

بالعكس أنا أفهم كل شيء وعلى الخصوص زوجتي أشعر أن هناك ترتيبات غير سليمة.

ضحك هاشم.

لقد انقلب الموضوع رأساً على عقب.

صدقني الوضع الداخلي لبيوتنا ما هو إلا انعكاس للوضع الخارجي، الأخطاء، القيم الفاسدة، الأفكار البائدة، المبادىء الواهنة كلها تدور في المحيط الذي نعيشه وينعكس على نفسيات الأفراد لأنها تدخل في خلايانا ومساماتنا مع الهواء الذي نتنسمه في كل لحظة، لو كان النظام مثالياً أو قريباً من

المثالية لرأيت الناس قد تبرمجوا بصورة عفوية وفق هذه المثالية «الأسر يا عزيزي طبق الأصل عن الدائرة التي تحتوي الناس».

زم هاشم شفتيه وأطبق جفنيه يستعرض في ذاكرته كل المشاكل التي تعاني منها زوجته، خيل لأخيه أنه في حالة شرود لكنه تنبه إلى صوت أخيه يسأله.

ماذا فعل محمد بصدد محاضرته القادمة؟

لقد جمعت له معلومات ووثائق تبين حالة الانهيار التي نحن بصددها.

ماذا لو تناول موضوع المعاهدات الاسرائيلية ـ العربية؟

كلها تصب في منبع واحد.

أقصد الاهتمام بالقضايا الخارجية أفضل من القضايا الداخلية.

افترق الأخوان كل في ناحيته، كل يحمل فوق كتفيه أعباء ثقيلة، وهموماً يكابدها من الأعماق، لكن ثمة مفارقات تحدث على الساحة تجعل الوضع يبدو باهتاً، مبهماً، شيء يحدق في الأفق، الضرائب التي ستفرض على بعض الخدمات، مطارق غاضبة تسقط فوق رؤوس التقدميين من قبل أناس يرون أن الحرية لا يستحقها كل فرد وأن الشعب غاص في الفساد، وينبغي أن تفرمل هذه الحرية وترغم الحدود الشرعية في جميع

مراكز الدولة والكليات وضرورة الفصل بين الجنسين، ثمة مؤيد وثمة معارض، والزحف الكبير ينهش كالسرطان من الداخل ويفجر فماً شرِهاً لا يشبع بل يستزيد من كل ما يلقى في فمه، الدول المجاورة لنا سلمت يديها لهذا المارد الكبير واطلقت حمم المدفع في وجه المعارضة التي عز عليها كل هذا الذل وذلك الضعف، فالحقوق مهدورة والحريات مكممة، ورم سرطاني يزحف على جسد الدول المسلمة ويمتص حيويتها ورونقها وثروتها بأكاذيب مزيفة وألاعيب خبيثة.

الوضع العام مغبر بل وقاتم ولا تعرف ما سيحدث على وجه التحديد، كل التصورات جاءت متضاربة لكن هناك من بعيد تأتينا صرخة تختنق وترتعد لفرط الغيظ تهيّىء لنا أسباب الصحوة.

وكان هذا اليوم حيث استعد محمد لالقاء هذه المحاضرة بصفته نائباً في البرلمان مرشحاً من قبل بعض الأفراد، التقدميون يرون فيه كل المؤهلات الطيبة ليخوض هذا الميدان.

اجتمع الثلاثة محمد وهاشم وميساء يعدان معه البرنامج ويساعدانه في إعداد بعض الأفكار المهمة، بينما قامت باقي النساء مع الخادمات لإعداد وجبة العشاء لضيوفه، لا زالت الخالة راقدة تكابد آلامها بينما فتوح حاولت أن تمسك زمام الأمور في البيت، تشخط وتأمر الخادمات في عصبية، وكلهن مرهقات متذمرات لا يحتملن وجهها العابس وغضون جبهتها

المتراصة في قسوة عينيها الحادتين اللتين تريان كل شيء في الحياة كئيباً ومكفهراً، لكن ذهنها شارد وأذنيها تحاولان التقاط كل كلمة تدور بين محمد وأخيه وزوجته، فهي تكره لقاءاتهم هذه وتحاول أن تعزل ميساء عن هذا الجانب الذي يحبه زوجها، أضرم هذا الموقف مشاعر السخط والتذمر في قلبها، جعلت تصرخ بوجه الخادمة:

- هات اناء الرز بسرعة.

تربت ناهد على كتفها ساخرة متشفية.

أعصابك يا عزيزتي.

تصفعها بنظرة ساخطة تطل من عينيها.

عادت الخادمة بالاناء وهي مرتعدة.

وتعاود فتوح صراخها ثانية وهي ترمي الاناء بعصبية.

الأناء الزجاجي يا غبية.

وتأتي به فريدة في عجالة، تحاول أن تهدىء من روعها.

اجلسي في الصالة مع زوجك وسنحاول أنا وناهد إعداد الطعام.

تنهدت فتوح، رمت بالملعقة على المائدة المنصوبة في المطبخ ثم جاءت إلى الصالة، جلست إلى جانب زوجها وعينيها ترمقان ميساء بتحد قالت:

يفترض أن تساعدينا في إعداد العشاء.

التقطت ميساء أنفاسها.

حاضر.. سأفعل كل شيء فقد كنتِ مشغولة.

إذن اذهبي فقد تعبت أنا، لقد عاودتني آلام الظهر مرة أخرى

زمت ميساء شفتيها.

حاضر حاضر.

نهضت ميساء غاضبة تجر خطواتها متثاقلة، اتجهت إلى المطبخ، بينما استرخت فتوح في مكانها كأن أعصابها قد شدت في حبال مكهربة تجعلها في توتر دائم، ارتسمت على وجهها ابتسامة صفراء، أحست أنها قد شفت من جرحها، حاولت أن تصغي إلى حديث الرجلين لكنها سرعان ما تبرمت منهما، شدتها همهمات النسوة في المطبخ، ارتفعت أصواتهن واعتدل مزاجهن كأن سحابة ندية طافت عليهن وأمطرتهن برذاذ ناعم، انبسطت وجوه الخادمات المتشنجة، عادت دائرة العمل تدور ثانية في انتظام، أقفلت فتوح راجعة إلى المطبخ حاولت أن تفتعل موقفاً يبرر عودتها ثانية إلى المطبخ حتى تدفع عنها الحرج، حملت صينية الشاي إلى المطبخ رأتهن يتحدثن عن المشي وآثاره عليهن.

كانت فريدة تقول وهي تقطع السلطة :

لقد نقص وزني خمسة كيلو .

بينما تغيظها ناهد :

لا أعتقد فما زلت سمينة ، لا أحس بالفرق .

بينما تجيبهن ميساء وهي تعصر الليمون :

الملابس هي المقياس .

وقفت فتوح أمامهن كالخفير

هيا تعجلن عملكن لا داعي للثرثرة .

تسخر ميساء وكأنها تصفعها :

ارتاحي يا عزيزتي فأنت متعبة سنقوم بعملنا بسرعة .

تعكر مزاجها ثانية ، أشاحت بوجهها عنهن قائلة :

سأذهب إلى أولادي لأتفقدهم .

كانت الخالة خارجة لتوها من غرفتها تتوكأ على عكازها ، أصبح وجهها نحيفاً وبدت تجاعيدها أكثر وضوحاً ، استوقفت فتوح :

أين ذاهبة؟

أتفقد أولادي .

بينما مضت الخالة في طريقها إلى الصالة حيث انضمت لـولـديهـا، ردت فتـوح البـاب وراءهـا، كـان الأولاد نـائميـن، سحبت عليهم أغطيتهم ثم جلست على سريرها، تنفث أعصابها المتبخرة من صدرها المحموم، أطرقت تفكر، تضع رأسها بين كفيها، تلهث والعرق يتفصد من جبينها «لقد أصبحت حساسة كثيراً، يا إلهي لا أدري ما بي؟ ماذا يحدث لي، لما لا أقتنع بما أعطاه الله لي، أصبحت حادة يكره الآخرون حدتي لأني أبعث فيهم الرعب».

بكـت فـي حـرقـة، إنهـا لا تحتمـل كـل هـذا العـذاب، الإحساس بالوحدة، بالنقص، تبحث عن شيء ليس في دنياها شيء له طعم، الحياة باهتة، ضائعة في انفعالها المحموم، هذه الروح العدوانية التي تهاجم الآخرين دون غاية، اللهم إلا التشفي بهم حملتها معاناة مريرة غارقة فيها دون هداية، إنها متأزمة مع كل شيء، حتى أولادها يرون فيها صورة جامدة لا تحتمـل المـزاح أو المـرح، تطـل عليهـم دائمـاً بـوجـه مكفهـر متجهم، التقطت ورق الكلينكس ومسحت كحلتها الذائبة في دموعها تسيح على خديها النحيلتين، وقفت أمام المرآة، تحسست وجهها الذابل الذي امتص الحسد لونه فتركه نحيفاً أصفرا فبدا أكثر استطالة، والحزن يمزق نضارتها ويبعثر أنوثتها لتتحول إلى شبح شرس، ابتلعت ريقها، تود لو تكسر مرآتها، لم تعد عينيها واسعتين، كان أحلى ما فيها هاتين العينين، لكن

تكشيرها وتبرمها أطفآ البقايا من هذا الجمال، وخطت التجاعيد خطوطها القاسية حول عينيها المغمورتين في حفرتين كثيبتين فبانت الأخاديد السوداء عندما ساحت كحلتها مع الدموع، تمتمت وهي تكتم صرخة مذبوحة «آه من عمر الأربعين هذه السنوات مرة، قاسية، كلهن صغيرات، ناهد، ميساء، فريدة، أكبرهن لم تتعد الثلاثين وأنا في الخامسة والأربعين أصبحت عوداً يابساً، جافاً، بل حتى وجهي ازداد سمرة، عظامي برزت لدرجة أشعر أن زوجي سيتألم عندما يقترب مني، المرأة النحيفة، الهزيلة، يشفق عليها زوجها».

تأملت وجهها في المرآة طويلاً وابتسمت بمرارة «لقد ازداد وجهي النحيل طولاً فبدا كوجه حصان، لو كان زوجي يحبني ويمنحني احساساً بالثقة لما فعلت كل هذا، لكنها خالتي هذه المرأة اللعينة التي اختارت لباقي أولادها زوجات صغيرات وأنا الوحيدة التي أقارب زوجي في العمر، نعم زوجي أوسم اخوانه وأكبرهم مركزاً وأعظمهم شخصية، إنني أشك بحبه لي، لا أعتقد أنه مقتنع بي، لكنها خالتي المجرمة تعمدت اغاظتي، اثارتي، تعمدت أن تضعني في هذا الموقف المحرج».

انتبهت إلى أكورة الباب تفتح، يدخل محمد وقد بدا متعباً، حاول أن يبدو لطيفاً، اقترب منها

ما بك يا فتوح؟

ـ لا شيء.

رفع وجهها إليه

أراك باكية.

برقت عيناها مندهشة، تذكرت وجهها الكريه، كأنها يئست من جذب زوجها.

لأول مرة أراك لطيفاً.

ابتسم بصدق:

لأني فعلاً أراك باكية.

تنهدت

أبكي مللي وحظي العاثر، أبكي سأمي من هذه الحياة.

لقد قطعنا شوطاً كبيراً في هذه الحياة ولا يجدي الحوار في مثل هذه الأمور.

تعثرت ضحكتها في وجهها الباكي، فسخرت.

أنت دائماً هكذا، قوي، لا يهمك شيء، تستطيع أن تستحوذ على كل شيء.

المفروض أن هذه القوة تسعدك.

رشقته بنظرة حادة كالسهم.

هذه القوة تدوسني وتلقيني في القاع.

صمت، أراد أن لا يوسّع النقاش حتى لا تثور ثائرتها لأنه على وشك أن يلقي محاضرته، ولا بد أن يستعد لها نفسياً، خرج وهو يصفق الباب وراءه وتركها لحزنها ولوعتها، ضياعها في حيرة نفسها اللاهثة وراء أوهام، إنه دائماً يتركها في صمت فتدور حول نفسها كالمجنونة، تتشبث بأذيال الحياة لتعيش، يستضعفها لأنها سمحت لنفسها أن تضيع في وحل الوساوس وكل شيء فيها مضطرب، قلبها يرتجف، عقلها يطيش وراء سرب من الأفكار الميتة، إنها امرأة تحوّل الحياة إلى صحراء جامدة، تكتم نبض القلب فتميت حيويته، هذا النور الذي تبعثه النساء دائماً في قلوب الرجال فتشعل فيه أوار الحب، تفتقده هذه المرأة التي جاءت وفيها شراهة كبيرة إلى النكد، تقدم لزوجها كل يوم كأساً من كؤوس المرارة فيلتاع ويتألم ليبتعد عنها يوماً بعد آخر، تشعر أن العناد والتحدي علامتان مهمتان لقوة الشخصية، ولكنها في الحقيقة ما هي إلا ضرب من ضروب الضعف والوهن بل قناع مزيف لحالة الشعور بالنقص الانثوي الذي تعانيه المرأة، فهي تضيع كل يوم، وتعجز عن تهذيب نفسها وترويض شخصيتها فتقفز إلى شكلها الخارجي وتظنه سبباً لمحنتها، إنها النفس الواهنة التي ابتليت بأمراض فصارت نظرتها إلى الحياة سوداوية، كل الأشياء قاتمة وكئيبة تتشح بثياب سود، حتى الوجوه التي تراها أمامها تظنها أشباحاً

جاءت إليها من عالم القبور فتتجاهل نفسها لتخاصم هذه الأشباح، لا تحب أحداً؛ بل ولا تظن أن هناك شيئاً من العاطفة يمكن أن يجمع الناس.

وكانت الساعة التاسعة مساءً.. وأقبل الناس على بيتهم حيث أعدت صالة كبيرة في سرداب البيت، صفت المقاعد بطريقة تسمح لاستيعاب أكبر عدد من الجمهور، قام عماد بتجهيز الميكرفون، وهناك سلم خارج البيت يمتد إلى السرداب مما يسمح للزائرين أن يتخذوا طريقهم إلى الصالة دون الحاجة إلى الدخول من الباب الرئيسي المؤدي إلى البيت.

اكتظ السرداب بالجموع الغفيرة من الناس، استطاعت النسوة أن يستمعن إلى الهمهمات والأصوات الآتية من الأسفل، ضجيج، قهقهات، حركة كبيرة اضطربت في البيت، وعماد في حالة صعود ونزول يقوم بخدمة الزائرين وتلبية مطالبهم والعمل على راحتهم.

اعتدل محمد في جلسته، لم يكن مرتبكاً أو متململاً، فالابتسامة الواثقة ترتسم على شفتيه، وتحياته يوجهها إلى الحاضرين، بينما هاشم يهيّيء المستمعين إلى المحاضرة ويشيع فيهم حالة الترقب والاصغاء.

بدأ محمد يستجمع أفكاره، يتناول قضايا السياسة الخارجية للبلد وتوجيه الأنظار إلى الوضع المدمر الذي تنسج

خيوطه اسرائيل، الآن هناك خطة مدروسة منذ سنوات بعيدة تستهدف السيطرة على العالم، وقد عرفوا أن الحروب لا تنفع لأنها تعمل على توحيد الدول العربية بينما معاهدات الصلح تفرق بينها ومن ثم نقل السفارات إلى هذه الدول التي كانت فيما مضى تستنكر النطق باسم اسرائيل، أضف إلى هذا فتح المكاتب التي ترعى المصالح الاقتصادية لاسرائيل في هذه الدول، بينما أميركا تتبنى عملية السلام وتهيّىء لها الأرضية الخصبة والناضجة لانجاحها، فافتعلت الأزمات في كل دولة على حسب ظروفها ووضعها السياسي، وحولت الأنظار عن القدس بعد أن كتمت القضية وسلمت مفاتيحها لاسرائيل لتقوم نيابة عنها في تصفية الحركة الاسلامية المناهضة التي تستهدف تحرير القدس. وهكذا خطت خطواتها حتى وصلت إلى الخليج، لاخلال ميزان القوى وجعلها لصالح الإستعمار ليصبح الناس في حالة خوف وتوتر دائم، فثمة خطر قادم من العراق ولا بد من حماية، وعلى ضوء هذه الحماية تتفاقم المشكلات وتضمر الدويلات الصغيرة وتتآكل وتتفتت، فالشعوب الآن ساهمة لا تدري ما تفعل، فقد أوكلت أمورها إلى حكوماتها التي لا تملك القوة الذاتية لحماية نفسها، فتستعين من خلال تفاعلاتها الخارجية بقوة عسكرية لتحفظ تواجدها، ففرضت على هذه الدول أن تبيع وتشتري من اسرائيل، وبدأوا بتأسيس المراكز الإقتصادية لتنمية الاقتصاد

الإسرائيلي، ومحتمل مع الأيام أن يأتي اليهود إلى دولنا، يتعاملون معنا، يتناولون طعامنا وبذلك نفقد هويتنا وكرامتنا تحت عناوين مزيفة كالصلح والسلام وتطبيع العلاقات، هناك الحكم الشرعي الذي يحرم علينا تطبيع هذه العلاقات ويدفعنا إلى رفض شراء أي سلعة يهودية من أسواق اسرائيل أو من تجار يهود وأسواق تستهدف خدمة الاقتصاد اليهودي كالبضائع التي تشترى من مجمع «مارك سبنسر» في لندن، لأنه يعلن جهاراً أن أرباحه يقدمها لصالح اسرائيل، كل المحلات والأسواق في شارع أكسفورد بلندن وغيرها من عواصم الدول الأوروبية هي في الواقع محرمة، وهناك الكثير من الفتاوى الشرعية التي تحرّم تطبيع هذه العلاقات، وبالتالي تدعو إلى المقاطعة الجذرية لاسرائيل وللحركة الصهيونية الخبيثة وعدم شراء تلك السلع، وأشار إلى أخيه حسين ليقرأ على الحضور آراء العلماء والفقهاء بشأن هذا التحريم.

وبعد أن انتهى حسين واصل محمد محاضرته، قال: إن أهداف الصهيونية ضمن مخططاتها هي المحافظة على حركتهم العالمية ومحاربة جميع الأديان، ومن ثم العمل على بث روح الإلحاد في العالم، وذلك من خلال تحطيم القيم الإنسانية والمبادىء الأخلاقية وتحويلها إلى حالة من الفوضى والإلحاد والإباحية.

الحركة الصهيونية يا اخواني تحاول أن تشغل الناس

بالأمور الداخلية المعيشية فقط على حساب التفاعل السياسي الخارجي، فتورطهم بمشكلات اقتصادية كالتجارة والصناعة والقروض، فتصبح عملية روتينية يومية ينشغل بها الأفراد في كسبهم المعيشي، لا تحتمل تطورهم في مسائل سياسية لا فائدة منها، كذلك هناك مسائل الفساد الأخلاقي والاكثار من قضايا الترويج والبطالة والفراغ، أو إثارة قضية سياسية في دولة ما على حساب قضية أخرى، ففي الوقت الذي انشغل فيه الرأي العام العالمي بغزو صدام للكويت ارتفعت الأنظار عن فلسطين ونسوا القضية، إذ قامت اسرائيل بمذابح شرسة للفلسطينيين وليس من سامع، فالذهن العالمي يترقب تطورات الوضع في الخليج.

وهؤلاء ينادون بالتقدمية والتحرر والعدل والمساواة ليستقطبوا الطبقة المثقفة ويسخّروا الأقلام والصحافيين والكتاب لخدمة أغراضهم ومداعبة أحلامهم.

هناك الكثير والكثير من هذه الأهداف والمخططات والتي بلا شك لنا نصيب منها، سنتناولها عبر حلقات في المحاضرات القادمة بإذن الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تناول حسين السماعة ليتحدث إلى الحضور قائلاً:

«والآن نفتح باب النقاش فكل مواطن له حق أن يعبر عن رأيه ويطرح سؤاله دون حرج».

ضج الحضور، وتعالت الأصوات المؤيدة والأخرى المعارضة وجاء النقد وأثيرت الأسئلة.

بينما صفق عماد بكفيه يسترعي الانتباه قائلاً:

«أيها الأخوة المحترمون، ندعوكم الآن لتناول العشاء، تفضلوا إلى المائدة» وأشار إلى صالة جانبية تفصلهم بقاطع خشبي حيث أعدت الأطباق الشهية والشاي.

وفور أن انتهوا من تناول الطعام تفرقوا في مجاميع صغيرة يتناولون أحاديث شتى وبعضهم التف حول محمد يواصل نقاشه، والآخر لا يزال يجلس إلى المائدة يثرثر في أحاديث جانبية، واستمر الجمع حتى ساعات الصباح الأولى.

الجزء الخامس

عـاد عمـاد هـذا اليـوم مطـرقـاً حـزينـاً يضـرب أخمـاسـاً بأسداس، الحزن يرسم شقوقاً واضحة على ملامح وجهه النحيل وكادت نظارته الطبية أن تسقط من عينيه لفرط شروده وانحناء رأسه، يحمل في يديه بعضاً من الملفات والأوراق، جلس على كرسيه المنصوب أمام جهاز الكمبيوتر، تصفح الأوراق بسرعة خاطفة حتى يئس منها فردها إلى درج المكتب، يحاول أن يشد على أعصابه حتى لا تنفجر فالاحتراق الذي يغوص في أعماقه لا يمكنه أن يستريح أو يهدأ، تأمل الجهاز بعينين ذابلتين كاد الدمع أن يسيل منهما لأول مرة في حياته، شعر بالاحباط، فكل معاناته ودراساته خلال هذه السنين لم تلق ذلك الإهتمام المنشود، إنه يدرك أن وطنه لا يحتمل كل هذا الزخم من الفكر بل يفيض عن حاجته وقدرته، هذه الدراسة

المستفيضة التي بحث فيها عن أهم الجوانب التي يمكن فيها للبلد أن تستخدم هذا الجهاز، لقد استجمع كل ارادته ووقته وجهده حتى يمكنه أن يخدم قسمه الحساس في معهد الأبحاث، يقف أمام مسؤول كبير يغوص في كرسيه الهزاز الفخم وأمامه مكتب يسع لعشرين شخصاً يقرأ السطور بل يمسحها مسحاً سطحياً سريعاً وكرشه يرقص فوق ساقيه، رائحة الدخان اختلطت مع عطره الثمين، كل شيء فيه يدخن، حتى شعر رأسه أشبه بالدخان فشعراته البيض تغزو المساحة السوداء الباقية من رأسه، وعماد واقف في ارتباك كمن ينظر حكماً نهائياً يحدد مصيره، الحيرة تشده إلى تأمل أصابعه المرتبكة، فبدت مرتعشة، منتفضة، هذه الأصابع الحازمة التي عزفت على مفاتيح الكمبيوتر بثقة يراها الآن خجلة أوشكت أن تقصر وتضعف، تنهد، حاول أن يشد عنقه ليبدو واثقاً من نفسه، قال له المسؤول وهو يحدق بوجهه طويلاً:

اجلس.

جلس عماد يضع ساقاً على أخرى، يفتعل ابتسامة مريحة على وجهه ليثبت لنفسه أنه في حالة استرخاء وطمأنينة، تململ، ازدرد ريقه عندما سمع مسؤوله وهو ينطق بهدوء:

ـ بحثك لم يضف أي شيء جديد.

تسمر في مكانه مشدوهاً.

لقد جمعت فيه معلومات جديدة جداً ما زالت الدول المتطورة تحاول أن تطبقه، يسحب المسؤول علبة سجائره ويضع أحدها في فمه ثم يقدم لعماد العلبة ينتفض عماد، يشيح بوجهه

شكراً لا أدخن.

ويعاود المسؤول احتجاجه البارد

إن بحثك ينفع لسنة ألفين.

تأمل عماد وكأنه يصفعه بعينين غاضبتين.

إنها عملية طبيعية تحتاج إلى ممارسة وتطبيق ومنهج، كان بامكاننا أن ندخل هذا الجهاز في كل جانب من جوانب حياتنا ويفرض كمادة دراسية على تلاميذ المرحلة الابتدائية لتطورنا أكثر.

قاطعه المسؤول وهو يقدم له البحث:

على العموم دراسة جيدة وبامكانك أن تطورها.

اغتاظ عماد وأوشك أن يقذف بالأوراق في وجه المسؤول الذي حرض أحاسيسه الشريرة على الانفجار، لكنه تمالك وبدا وهو في موقفه هذا كأنه شاخ عشرات السنين، حمل الأوراق وخرج غاضباً، كأن المسؤول زشقه بسهام السخرية والاستهزاء في صدره، فمزقه وحطم ضلوعه، تشتتت أفكاره،

أحس بدمائه تغلي بل تكاد أن تحرق كل خلية من خلاياه، ارتعدَ ضاقت به الدنيا، أطبق جفنيه في حزن، فآماله الكبيرة التي خطط لها ترامت تحت أقدام الجهل والتخلف، جاء خائباً، محبطاً، يجر أذيال الفشل كأنه غاص في ثيابه وذاب حتى أصبح سراباً يتلاشى، أحس بمطرقة تهوي على رأسه، وقهقهات قاسية تسخر منه، ماذا يستطيع أن يفعل فالآمال التي تموت في أول الطريق لا يمكنها أن تحيا من جديد، فليهدأ هذا الضجيج المزعج، كلهم يكتوون بنار الظلم، إنه يكره «عبد الله، هذا الرجل الذي نصبته الأقدار صنماً متحجراً يقف في وجه طموحاته وارتقائه، كثيراً ما اشتبك معه في مواقف كان يرى فيها عماد نفسه محروماً من الترقية والمكافأة التي يستحقها رغم أنه شاب مثابر قدم لوظيفته الاقتراحات البناءة وأنقذها من مشاكل كادت أن تسقط بسببها في الهاوية، رغم كل هذه الامتيازات يعاقب بل يسحق، هل هي الأوطان المتخلفة التي تدوس كل من يطلق لعقله العنان ويبحث في وجدانه عن معاني الارتقاء، مسكينة أنت أيتها الشعوب الحمقاء، الأشباح تغتال فرحتك وأنت سامدة تتقاذفك الهموم من كل حدب وصوب وأنت تائهة في حلم البقاء، لا شيء اسمه ابداع في وطن يسكر بنشوة الدنيا، المبدع انسان ضائع في عالم كله عرائس تحركها أصابع حاذقة تحدد مصيرها، بالأصابع فقط، نعم بالأصابع،

نحن نستسلم بخضوع أمام هذا الصنم القاسي الذي يقف أمامنا كالاله بوذا.

بدأ يفهم عماد أنه يقع في شراك الغيرة والحسد، «عبد الله» المسؤول الذي ينتمي في أصله إلى جذور وضيعة رغم منصبه، رغم هذا الاطار المتضخم يجد في عماد الباحث المكافح سليل العائلة العريقة شاباً عبقرياً مبدعاً ينضح حيوية، إن له بريقاً لامعاً حتى وان ارتدى ثوباً مرقعاً، شيء من البغض يضطرب في صدره كلما التقت عيناه عماد..

جلس عماد مطرقاً، متذمراً، يحاول أن يزيح هذا العبء عن كتفيه لكنه متشائم، يرى أمامه الحياة سوداء كئيبة، لأنه عاش من أجل أهدافه العلمية التي تساقطت مع حبات دموعه.

التفتت إليه فريدة، حدقت بوجهه طويلاً ثم قالت:

ما بك يا عماد؟

يتفرس وجهها لعله يبحث فيه عن شيء يريحه

لا شيء.

ربتت على كتفه

تعال لنتناول الغداء.

قال بامتعاض:

لا أرغب في ذلك.

عادت تلح عليه ثانية

ما بك متجهماً؟

صعق مذعوراً

قلت لك لا شيء، أرجوك دعيني لوحدي.

تسمرت فريدة في مكانها وشياطينها تتجمع لاهثة في رأسها، وهذه القيود الوهمية التي نسجتها طوال هذه السنين تتمزق ودماؤها تضج من الغضب، فانفجرت كالقنبلة الموقوتة التي تنتظر هذه اللحظة وبجنون مستعر تشد شعرها.

يكفيني، يكفيني ذلاً ما عدت أستطيع الحياة مع صنم أبله، ألا تحس بي يا رجل، ألا تشعر بوجودي، لقد كرهت نفسي، كرهت حياتي، بل كرهت بيتي، منذ أن تزوجتني وأنا أبتلع تجاهلك واهاناتك، لو كنت حجراً لنطق، صمتُ حتى سئمت صمتي، طوال هذه السنين لم يجمعنا حوار أو حديث ودي كأي زوجين، كنت أرى نفسي زوجة ناقصة لا أستحق حتى نظرة عابرة منك، اعتقدت أن سمنتي نفرتك مني وصنعت المستحيل كي أكون بأجمل صورة، إني أحاول أن أرضيك.

قاطعها صارخاً وهو يصم أذنيه.

اصمتي أرجوك أصمتي فصوتك مقرف.

ازداد جنونها عنفاً.

لا . لن أهدأ، لن أهدأ ولن أصمت لقد فاض بي همي، فلم أعد قادرة على الاحتمال، إنني أقلهن حظاً وأنت أكثرهم سلبية، لقد هجرتني، لم أعد استطيع العيش معك.

ضرب المكتب بقبضة كفه معنفاً.

أغربي عن وجهي.

خبطت بكفها على صدرها لاهثة

أهذا كل ما تستطيع أن تقوله، إنك انسان عاجز عن مواجهة مشاكلك، وقف كأنه عامود من نار وهوى بكفه يصفعها بقوة وهي تزداد ارتعاشاً وغيظاً، الشياطين تحتفل بانشودة النار في رأسها، وتمضي تستحثها في الضغط على الزناد.

لست رجلاً . . لست رجلاً . .

وضرباته تعنف، ومطارق الحطام تتساقط فوق رأسها فترشقه بالشتائم، لا شيء يطفىء هذا اللهيب المشتعل، يتكوم الأطفال خلف باب الصالون في ذعر، تفلت فريدة منه، يحاول أن يشدها من شعرها، فتفتح باب الشقة حافية القدمين كأنها هاربة من وحش أرعن، تصرخ انقذوني من هذا المجنون، وفجأة تجد نفسها تطرق باب ميساء بعنف، وتتلقفها ميساء بذراعين حانيتين، تسقط على صدرها باكية تصلح شعرها المنكوش، يقف كل من في البيت على قدميه مذهولاً، عماد

هذا الرجل الهادىء قد تحول إلى عاصفة من الغضب، ماذا حدث؟! أفاقت الخالة مذعورة كأن مساً من الجنون قد أصابها، نسيت مرضها، نسيت عجزها، لعل الله قذف في أوصالها قوة الشباب دفعة واحدة، صرخت «ماذا أصابكم؟ هل جن جنونكم؟» وتفرست بعينيها وجوه كناتها بغضب وأخذت تشير بعصاها اليهن «ماذا تفعلن أيتها اللعينات بالرجال، لقد كان أولادي يعيشون في هدوء وهناء، أتيتن وكل واحدة فيكن تحمل الشر إلى بيتي، ماذا حدث لأولادي يا إلهي، إن أولادي غير سعداء لقد قتلتهم بيدي هاتين، انهم تعساء، هؤلاء النسوة يسقين فلذات كبدي كل يوم جرعات المرارة والقسوة»، ودقت بعصاها على الأرض باكية تنتحب «يا إلهي ماذا يجدي العمر والذي تحبهم أشقياء، ما معنى حياتي وأولادي يموتون في اليوم ألف مرة». اقترب منها محمد يهدىء من روعها «اجلسي يا أمي لا تجهدي نفسك سنحاول تسوية الأمر».

حدقت بوجوههم تقلب حياتهم بعينيها القاسيتين، وفي كل نظرة اتهام واشفاق. . من منكم سعيد؟ سأموت وأنا غير مطمئنة، ان زوجاتكم غير أمينات.

انتبهوا إلى صرخات فريدة آتية من أعلى السلم عائدة في طريقها إلى الصالة تحمل حقيبتها «سأخرج من هذا البيت وإلا جننت».

وقف الجميع مبهورين كأن على رؤوسهم الطير.

تنهدت الخالة وهي مطرقة «إنا لله وإنا إليه راجعون».

صاح حسين «أين عماد؟»

صعد حسين السلم متجهاً إلى شقة عماد، رآه منكباً على المكتبة يخبىء وجهه بين كفيه.

اقترب منه، صاح في هدوء.

عماد، زوجتك تريد أن تغادر البيت، قم والحقها، حاول أن تسوي الأمر يا عزيزي، أمنا مريضة لم تعد تحتمل المزيد من المشاكل.

رفع عماد رأسه، ما زالت أثار الدموع عالقة في عينيه وحمرة قانية يصطبغ بها وجهه وبلهجة فاترة يزدرد ريقه:

ـ حاضر، حاضر.

ربت حسين على كتفه مندهشاً:

ـ ماذا دهاك يا عماد؟ ماذا أصابك؟

عقد عماد حاجبيه مستغرقاً في حيرته، مشدوهاً، الذهول يعقد لسانه، يستطرد بشرود

ـ انها نوبة، نوبة غضب.

ويرمق أخيه ليستوثق من أن صورته لم تهتز، ليتأكد أنها حالة طارئة.

ـ أليست هي نوبة؟

يشده حسين من ذراعه.

ـ هيا قم معي.

يقف كالصنم الأصم، كأنه في حالة اعياء، وقبل أن يضع قدمه خارج الدار تذكر.. لقد قالت له أنك لست رجلاً وأنك عاجز، شيء من قوة الكبرياء تدفعه إلى التراجع خلص ذراعه بقوة وعاد إلى شقته، صرخ به حسين

ـ ما بك هل جننت؟

باصرار يهتف عماد:

ـ اتركني وشأني أرجوك.

وبتوسل وعناد.

ـ عماد أرجوك دعنا نحتوي مشاكلنا.

شد نفساً عميقاً وهو يشبك أصابعه ببعض.

ارحمني من هذا الاصرار.

وأقفل حسين راجعاً فمحاولته باءت بالفشل.

كانت ثمة عاصفة في الصالون الخالة وفريدة في اشتباكات كلامية حادة، الخالة تدافع عن ولدها «عماد أطيب

أولادي وأهدأهم لعلك جرحتيه أو أثرت غضبه والمثل يقول اتق شر الحليم إذا غضب».

تدافع فريدة عن نفسها.

«ولدك سلبي، ضعيف الشخصية، لقد احتملت اهماله لي كل هذه السنين ولم أعد أطيقه أكثر من هذا».

أشارت الخالة إلى الباب غاضبة

«الباب يوسع جمل».

حملت فريدة حقيبتها بعصبية وخطوط اليأس والاحباط ترسم خريفاً باهتاً فوق ملامح وجهها.

خرجت وهي تصفق الباب وراءها

بصقت الخالة خلفها متوعدة الأخريات

«فلتعرف كل واحدة منكن أنها إن خرجت من بيتها سوف لن تعود ثانية».

«بنات هذا الزمن، فاشلات في إدارة بيت صغير، فيما مضى كنا نتعرض إلى الضرب والإهانة وأمنا لا تعرف سرنا».

صمت، لا شيء غير الصمت، الخالة لم تعد كسابق عهدها، كأن المرض سلبها العافية، لكنه منحها قوة العزيمة في مواجهة المشاكل، ربما احساسها بالضعف وأنها موضع شفقة ورحمة يدفعها إلى اتخاذ أي موقف دون لوم أو إدانة من قبل

ابنـائهـا، لكـن العـائلـة لـم تعـد تحتمـل المـزيـد مـن الهـزات والفضائح، وورد خاطر في ذاكرة كل فرد منهم وهي لا بد من ترك هذا البيت ليعيش كل واحد منهم حياته دون أن يعرض أسرته إلى النقد والإحراج.

تذكرت الخالة أولاد عماد ماذا سيفعلون في غياب أمهم؟

أمرت الخادمة أن تعد لهم أسرّة في غرفتها.

«سينام أولاد عماد عندي».

قال محمد: ولم كل هذا يا أمي دعيهم ينامون مع أبيهم فذلك أفضل نسيت فتوح مشكلتها فهي ليست لوحدها من تعاني، فريدة أصغر منها بسنوات بل وأجمل منها ومع كل هذا تتألم وتتوجع وتبصق في وجه الحياة المكفهرة في اليوم ألف مرة، شيء يثلج الصدر فعلاً! حتى الصغيرات يعرفن أن هناك طـريقـاً معبـداً إلـى الحـزن يقطعنـه مـرغمـات، وليسـت عينـاي لوحدهما تبكي وانما عيون الصغيرات تعرف البكاء أيضاً!!!

بينما جلست ناهد تتصفح الجريدة اليومية الملقاة على الطاولة وفكرها شارد سارح في كل شيء، تارة تشفق على فريدة، وتارة تتشفى منها، أليست هي التي تركتها ورفضت فكـرتهـا فـي الـذهـاب إلـى أم الخيـر، سحـرتهـا أحـلام ميسـاء ووعودها الكاذبة فلتجني ثمار ألاعيبها الرعناء، لكنها مضطربة على غير عادتها، تغوص في صدرها شيء مبهم معالمه غير

واضحة، تتنهد، وعندما يقترب زوجها تتوجس خيفة، تضع الجريدة على وجهها لتخفي هذا الاضطراب، نعم تعرف أنها في موقف لا يحمد عقباه، لكنها تتلذذ في التفكير فيه منذ أيام، وعندما كانت تتجول في السوق وتتطلع بعينين مملوءتين بالشباب والحيوية إلى الملبوسات المعروفة في الدكاكين والمحلات، لمحها رجل مضى يتفرس في وجهها طويلاً حتى التقت عيناه بعينيها ووقف مشدوهاً بجمالها، فهمس في أذنها «لم أر في حياتي أجمل منك».

انتفضت كالمذعورة في ذلك الوقت، لقد كان رجلاً وسيماً، طويلاً عريضاً صفف شعره حتى بدا يشبه أحد ممثلي السينما، لا زالت آثار هذه النظرة الساحرة عالقة في رأسها، نظرة فاترة مجهدة كأنها تبحث عن مرفأ، لقد تابعها طويلاً حتى عرف بيتها، يبدو أنه ثري، سيارته الفارهة المرسيدس تلفون السيارة انه رجل جذاب، مضى يتصل بها أكثر من مرة هذا اليوم. عندما يرفع حسين سماعة التلفون يصمت ثم يلقي بالسماعة ويعاود الكرة حتى تأتي ناهد لتجيب على الهاتف ويحاول أن يتحدث إليها لكنها تصرخ في وجهه وتنهي المكالة، أيام وهي في هذا المأزق، تشعر أنها مجهدة، متعبة، يقف في خيالها كالشبح، كالطيف يداعب مخيلتها، ماذا فعلت بها نظرة هذا الرجل، ولِمَ سمحت لنفسها بكل هذا الاستغراق، أزاحت الجريدة عن وجهها وتأملت زوجها حسين بعينين فاحصتين، ما

به بدا أقصر من قبل وأنفه كبر بهذه الصورة، وفجأة يقف هذا الرجل شاهقاً متخصراً يقهقه في اذنها وتحاول أن تجتنب التفكير فيه.

تضع البديل الشرعي في مكانه، لكنه يتراقص كألسنة النار في رأسها، يحرك كل الأطياف الجميلة، تنهدت واقفة، قالت لزوجها:

أنا متعبة سأذهب لأنام.

لم يكن حسين ساذجاً، إنه يشعر أن ثمة جديداً قد طرأ في حياة زوجته، لقد تغيرت، لم تعد تتفاعل معه كسابق عهدها، كلما يقترب منها تتذرع أنها متعبة تحتاج إلى النوم ولكنها لا تنام تتقلب في فراشها وكل ذرة في جسدها قد أصبحت قطعة من الجمر، شيء مكتوم في صدرها تتمنى لو يتسلل إليه خلسة ويعرفها بوضوح، انها تهمس بهدوء كعادتها «لا شيء جديد» وعاد ليقنع نفسه أنها في وضع طبيعي لأنها أنكرت أن يكون قد حدث لها أي شيء جديد، ربما قيوده الكثيرة التي ترغمها على ارتداء الحجاب بهذه الصورة شدته في محاولة تغييرها، لقد حمل إليها في الآونة الأخيرة مجموعة من الكتب الدينية وطلب منها قراءتها ومن ثم مناقشتها معه، ربما تعبت، أظنها قد ألقت بها جانباً واستعاضت عنها بالمجلات، منذ البداية كان الاختيار خاطئاً، رغم أني أحبها وتحبني وأجد فيها الليونة والطيبة التي يرغبها أي رجل في زوجته لكنها لا تريد أن تتغير، هكذا تجد

نفسها جميلة وتأنف أن تحبس جمالها، رغم أني أقنعها بميّزاتها الأخرى التي تفوق هذه الناحية، فلأتجنب هذه القسوة بعض الشيء لعلها تتأثر دون أن أرغمها على هذا الأمر.

كانت ناهد واقفة أمام مرآتها تمشط شعرها، رن الهاتف، ترددت، خشيت أن تسمع صوت ذلك الرجل، نادت ابنتها لتقوم بهذه المهمة، كل من في الدار نائم، ستضطر إلى حمل السماعة، لا.. ستتركها، سيرن التلفون ويسكت لوحده، لكن صوت الهاتف العنيد يأبىٰ إلا أن يضرب في قلبها ضربات موجعة أوشكت أن تحمل السماعة، لكنها تراجعت، وفجأة دخل حسين متسائلاً:

ـ ما بك لما لا تردين على التلفون؟

تلعثمت، احمر لونها، تشعر أن في عينيه اتهام.

حمل السماعة، وكان المتحدث أمها، تنهدت، استراحت، بعد أن كادت أعصابها أن تحترق.

* * *

جلس عماد إلى طفليه يداعبهما، يحاول أن يعيد إليهما الهدوء، لكنهما حزينان يبحثان عن أمهما، بدت الدار حزينة، خالية، تبكي فريدة، فريدة التي كانت تزغرد بضحكتها وفرحتها، سمنتها الطيبة وهي جالسة في الصالون ترتشف الشاي بشراهة أمام التلفزيون والطفلين حولها يثيران الألعاب

وأحدهما يضرب الآخر، فتضرب هذا وتدافع عن ذاك، كان مقعدها خاليا، اقترب منه، كان كوب الشاي ممتلئاً لعلها كانت في مكانها كعادتها تستريح قبل أن ينفجر خلافهما، تركت كوب الشاي وجاءت إليه متسائلة متأملة أنها ستكون زوجة حقيقية في يوم من الأيام تضمه إلى صدرها في حب وحنان، لكنه صفعها وأحبط كل محاولاتها ومزق كل خيوط المودة التي تربطهما، عندما اقترب من طفليه هذا اليوم وجد نفسه يكتشفهما لأول مرة، حاول أن يفهم طبيعتهما، لكنه جاف، قاس، لا يمتلك مقومات الأبوة التي تمكنه من جذبهما، لعب معهما، ضحك، قفز، لكنهما يعاتبانه بقسوة وينظران إليه بشراسة، فأدارا ظهرهما إليه، ذهبا إلى فراشهما هرباً منه. جلس لوحده يفكر، ثقل جفناه لفرط الاجهاد، بدت عيناه وارمتان منتفختان، يستعيد حدث اليوم ليعرف سر غضبه، هذه المرأة الطيبة التي صبرت عليه وكيّفت نفسها بالصورة التي ترضيه، لم تشتبك معه في أي موقف ساخن، بل احتملت كل هذا الاهمال ورتبت حياتها كأم تخضع ارادتها في اتجاه التربية، عافت نفسها الزينة، أهملت رشاقتها، فانكبت على الطعام تأكل بنهم وتتهكم على جسدها أمام الناس، واختزن عظامها الهم مع اللحم، فكانت تسخر كالمهرجة قائلة: انني كالبالونة منفوخة لكنها خفيفة، وأنا أعرف نفسي سمينة لكن دمي خفيف، وتارة أخرى تسخر قائلة انني مرغوبة أكثر منكن لأني كاملة الدسم، ويضحكن

عليها، فتسرد النكات والحكايات فأصبحت شخصية مرحة، ممتعة، مسلية، يحبها الجميع، ومن أجله ولكي تحتفظ به زوجاً محباً للأبد أقنعتها ميساء، في أن تستعيد رشاقتها، وجاهدت نفسها لتسترد شيئاً منها فأصبحت أجمل من السابق واعتنت بهندامها، وعماد لم يلحظ أي شيء كأنها قطعة من الجماد تكمل باقي الأثاث، قرأت بعض الكتب العلمية لتحاوره بشيء يسعده فلم يلق لها بالاً، لقد فقدت ثقتها بنفسها، أيقنت أنه لا يحبها، فشلت في الحب، لم يعد في حياتها ما يستحق الاهتمام حتى انفجرت كل هذه الحمم، وانبثقت من فوهة البركان أحزان وآلام دفينة وعماد حاول أن يحبها، حاول أن يقترب منها ذلك الاقتراب النفسي المنسجم، لكن ثمة حاجز يقف بينهما، شيء من البرود يسري في أوصاله ناحيتها، جاهد نفسه، صارع كيانه كي يزرع بذرة الحب بينهما، لكنه لم يستطع، انه ليس بارداً أو فاتراً، فيه من العاطفة والمشاعر الجياشة التي تسعد أية امرأة وتغرقها في بحر من الأحلام.. لكن ثمة سر، وثمة شيء عالق في الذاكرة ومترسب في قاع الذكريات ويسكن في دمه حتى النخاع «هنادي» ولهذه المرأة قصة وقد تكون السر وراء تعاسته.

الجزء السادس

في الصباح الباكر كانت الخالة تجلس وفتوح تتناولان الفطور، فانتبهتا إلى هاشم يمسك بزوجته في حالة من الاعياء، فاستوقفتهما الخالة وهي تتطلع إلى هاشم متسائلة:

ما بها؟

قال هاشم في عجلة وهو يشفق على زوجته

منذ أيام وهي في حالة من الغثيان، لم تنم طوال الليل كانت تتقيأ كل ساعة.

ابتسمت الأم:

قد تكون حامل.

أجابها

يبدو ذلك.

وخرجا وارتسمت أسارير الأم بشيء من الارتياح، وبدت هذا الصباح في حالة كبيرة من النشاط، فالأمنية التي كانت تتمناها قد تحققت، تنهدت متمتمة «الحمد لله، الحمد لله».

استاءت فتوح وخطف لونها، لم تكن تود أن يحدث هذا الأمر، فقالت متلعثمة:

ـ ألا ترين يا خالة أنها تعزل هاشم عن اخوته.

وكيف ذلك؟

إنها في أكثر الأمسيات تسهر عند أمها مع هاشم، فأصبح يتردد على أهلها أكثر من ارتباطه باخوته، حتى أن محمد يبحث عنه ليبحث معه موضوع الانتخابات فلم يجده.

بدت الخالة تفكر تستجمع ظنونها المبعثرة

كلما سألت عن هاشم، قالوا: إنه مشغول في الجريدة.

وتمضي فتوح في غيها وكأنها تستمرىء الكأس على مهل.

أنت طيبة يا خالة وعلى نياتك لا تعرفين ما يحدث بينهما.

قطبت جبينها في غضب.

ماذا يحدث؟

استراحت، أحست كأنها أصابت الهدف في المرمى

لم كل أزواجنا رهن اشارتك، ينفذون أوامرك، يملكون مصيرنا إلا هاشم، إنه لا يخطو خطوة إلا بأمرها، لقد سيطرت على تفكيره إلى حد الجنون

كادت الخالة أن تصرخ لكن فتوح قاطعتها:

أنت مخدوعة فيها.

قالت الخالة في غيظ

لا أحد من أولادي يخرج عن طوعي.

واقتربت فتوح منها تنفث فحيحها في أذن الخالة وتلتف حول عنقها كالأفعى.

كنت أود أن أسرك سراً لكني خشيت أن أكون فتانة، احتفظت بهذا السر لفترة طويلة، وترددت.

اتسعت حدقتا الخالة في دهشة ودنت من فتوح تستحثها:

هات ما عندك.

ازدردت ريقها تستجمع شتات أفكارها لتلقي هذا الخبر في رأس الخالة.

ـ ألـم تـلاحظـي كثـرة مشـاكلنـا فـي هـذا البيـت بـالفتـرة الأخيرة؟

هزت الخالة رأسها بالايجاب ويبدو أن صبرها قد نفذ

ومضت فتوح:

رأيتها ذات يوم وعندما كنت راقدة تبخر البيت بأوراق عجيبة ذات ألوان مختلفة، وعندما رأتني ارتبكت عادت إلى غرفتها متعثرة الخطى لأني كشفت أمرها.

وقع الخبر كالصاعقة في رأس الخالة وثارت ثائرتها:

الساحرة الماكرة التي تتمسح بمسوح البريئات.

وتؤكد فتوح هذا الخبر.

ـ شككـت فـي هـذا الأمـر حتـى تـأكـدت مـن أنهـا وأمهـا تتعاطيان بالسحر، وهما معروفتان في ذلك، فهي تعرف أنك لا تحبيها، فلجأت إلى هذه الوسيلة للانتقام منك.

صدَّقت الخالة كلام فتوح لأن عاطفتها تشدها إلى فتوح، تظنها امرأة عاقلة، تود لو تصفع ولدها الذي أصبح مهزوزاً ضعيفاً أمام امرأته!! نعم إنه يبدو أمامها كالعبد الذليل، لم أر في حياتي رجلاً لصيقاً بامرأته كهاشم، فلم أره يوماً نهرها أو زجرها، حتى أخطاءها يظنها حسنات هذا الرجل المعتوه الذي فقد عقله وشخصيته!!

نهضت فتوح من مكانها تشد عامود العظام وتبتسم ابتسامة صفراء، تنتشي كل قواها فالنصر الذي أحرزته الآن قد يكون الضربة القاضية لطردها من البيت، وقبل أن تنصرف همست في أذن خالتها:

ـ أرجو أن يبقى هذا الأمر سراً بيننا لأنها لو علمت ذلك فسوف ينقلب البيت إلى جحيم.

عادت فتوح أدراجها، ترتدي ثيابها على عجل، تنصرف إلى عملها، لكنها الآن تخطط لخطة كبيرة وقد اختمرت الآن في رأسها، شيء كانت قد أعدته منذ أيام مستخدمة بذلك سلطتها ومركز عائلتها، لا بد أن يسقط زوجها في الانتخابات، ستنتهج كل السبل من أجل تحقيق هذه الغاية وهي وحيدة والديها لها تأثير كبير عليهما، بل مستعدان لتنفيذ كل رغباتها لارضائها، وأفضت إليهما بهذا السر، وأجرى والدها كل اتصالاته بالحكومة والمسؤولين حتى يتم تشتيت الأصوات التي اجتمعت كلها لصالح محمد، فقد برز في المنطقة الانتخابية منافس قوي قد أقنع من بعض الأطراف ليرشح اسمه لأداء هذا الدور المؤقت وفعل ذلك مقابل مكافأة مالية مغرية، وقد غيرت فتوح اتجاه سيارتها إلى ناحية أخرى حيث بيت ذويها لترتيب باقي الأمور.

ابتسمت بارتياح، زفرت زفرة قوية انطلقت من احتراق

قلبها المريض، لم تكن تعرف نفسها سيئة إلى هذه الدرجة، نفضت الفكرة عن رأسها، لا لست سيئة، إنما أحقق غاية كان ينبغي أن تتم حتى أحافظ على زوجي، لا بد أن أقص ريشه حتى لا يطير ويترك في عشه امرأة ذبيحة مكسورة مهزومة، تحطمها سنين العمر القاسية والضياع دون هدف، «لو كنت أعرف أنني محبوبة وشيء ثمين يعتز به لما هالني الأمر، لكن وعلى الدوام يذكرني بخيبتي وقبحي وكبر سني، إنه يزداد قوة ووسامة ونفوذاً وأنا ازداد ضعفاً وحبوراً واحباطاً، يجب أن أمسك بزمام الموقف بكلتي يدي لأحتفظ به، أحسست به وحشاً كاسراً يدوسني لينطلق ويصل إلى أهدافه التي لم يشاركني بها رغم أني خريجة جامعة أمريكية، هذا المعتوه يحتقرني دائماً ويسلبني ثقتي بنفسي، والرجال أنانيون لا يفكرون إلا في مصالحهم الذاتية ويستبدلون النساء كما يستبدلون ثيابهم، وأنا لا أعرف ما سيحدث مستقبلاً، ربما يبحث له عن زوجة صغيرة وجميلة ومثقفة كميساء، هذه الغبية التي تقف في طريق حياتي وتبعثر كل أمالي وأمنياتي، لا بد أن أحطمها، أنا أعرفه جيداً، فهو يشبه أمه بعنادها وسطوتها، لم يخلق بعد ذلك الرجل الذي يحكمني ويسيطر علي، سأفرمل اندفاعه الأعمى نحو القمة، الأبله يخطط إلى منصب سياسي كبير، ربما يحفر الصخر بمخالبه ليمسك بالوزارة في يوم من الأيام، لكن لا، سوف لن يصل إلى مرامه، سأبقى وراءه حتى يبقى يدور في مكانه وحطام

الأمنيات تدور معه، حتى تموت تحت أقدامه.

ضحكت.. ضحكت ملء فمها، لم تضحك في حياتها كما ضحكت في هذا اليوم، شيء من الفرح يرقص كالنغم في صدرها، ويعربد فوق شفتيها اليابستين، وقفت أمام فيلا كبيرة مترامية الأطراف وأمامها حديقة على مد البصر، اندفعت إلى الداخل تجر ابتسامتها وراءها، قطعت في طريقها بعضا من الزهور، تشمها تحبها كأنها تحب الحياة دفعة واحدة، استقبلتها أمها، احتضنتها ثم قبلتها كما لم تقبلها من قبل، وتناولتا موضوع زوجها لترتيب المراحل الأخيرة، وفجأة دمعت عينا فتوح، ثم انتابتها نوبة من البكاء عنيفة، حارة اقتربت أمها خائفة تضمها.

ـ ما بك يا فتوح؟ لقد كنت سعيدة اليوم على غير عادتك.

خبأت وجهها بين كفيها لتنتحب والكلمات تخرج متقطعة، ساخنة، كأحرف من نار «أكاد أجن يا أمي، أكاد أجن، أنا مريضة، متعبة».

تضع أمها رأسها على صدرها في حنان.

«إن شاء الله عدوك يا حبيبتي، لا تفكري بأي شيء، طالما أنا وأبوك معك سوف لن نتركك ضحية هذه الوساوس».

تأوهت فتوح

«يا أمي أيامي كلها مريرة، تعيسة، لا طعم لحياتي، ولا نكهة، أعيش مع رجل من جماد، حتى أولادي أصبحت لا أطيقهم، لا أدري ماذا دهاني يا أمي، دائماً أحس بالفشل، بالاحباط».

ذرفت دموعها اليائسة والحيرة تتقاذفها في كل ناحية حتى ألقت نفسها على الكنبة تتوجع كالطير الذبيح وأمها واقفة تنظر إليها باشفاق.

إنها لا تكف عن البكاء، بل صارت حياتها قصة من الحطام يتراكم كل يوم فيحترق ثم يعود مرة أخرى يتكوم فوق رأسها حتى تشعر بالاعياء.

تقترب أمها منها، تربت على كتفها وتمسح بعينيها الحانيتين دموعها فتقول:

تحملي يا ابنتي من أجل أولادك.

وبيأس تستطرد فتوح

ليس لي خيار اخر.

وفجأة لمع بريق طاغ في عينيها ثم قالت:

أنا أكره هذه المرأة يا أمي، لا أطيق وجودها، إنها تشد انتباه زوجي وأتمنى أن تخرج من هذا البيت لأرتاح.

تستدرك الأم

من؟ ميساء؟!

باصرار شرير تهتف

أجل، لا بد أن تنتهي قصتها.

حاولت الأم أن تهدىء من روعها

أنا لا أعرف سر غيظك منها، اعتبريها حشرة فأنت في القمة وهي في القاع.

تصرخ بغيظ

ولكن محمد معجب بها، أنا لا أستطيع أن أنكر احساسي هذا

قالت الأم كمن يختم الموقف:

إذن أخرجي أنت وزوجك من البيت، استقلا في حياتكما، فالى متى تظلان على هذا الحال.

لقد اشترينا الأرض ولم نفكر بعد في بنائها، محمد هو الابن الأكبر ولا يرضى أن يغادر البيت الكبير.

تشد أمها عزمها:

بل خططي لهذا الأمر.

صمتت فتوح، راقت لها هذه الفكرة، ولكن ما يقلقها هو كيف ستقنع زوجها بهذا الأمر.

عادت فتوح إلى بيتها، انتبهت إلى خالتها نائمة، فتسللت خلسة إلى غرفتها أدارت قرص الهاتف لتتحدث إلى زوجها في الشركة، وأتاها صوته متعباً مكدوداً، تسأله بلسان رطب جميل.

- ما رأيك لو نتناول غدائنا اليوم في المطعم.

وبسرعة خاطفة وكمن يتصفح أوراق وهو في عجلة من أمره رد قائلاً اليوم أنا مشغول جداً، وربما سأتأخر على الغداء، دعيها للمرة القادمة.

ضغطت على أعصابها

حسناً، كما تشاء.

ستحاول هذه المرة أن تقنع زوجها في الاستقلال عن هذا البيت، لقد كبر أولادها وهم بحاجة إلى غرف خاصة بهم. هناك مبررات كثيرة تستدعي ذلك، وستدفعه لمواجهة أمه في هذا الأمر.

رقدت على سريرها، تبتسم في الفضاء وتحلق في أحلامها البعيدة، انها تريد الحدود في كل شيء، تحديد حياتها بالصورة التي تصبو إليها.

الجزء السابع

استلقت ميساء على سريرها في المستشفى وقد غرز الطبيب أنبوبه المغذي في ذراعها الأيسر، شحب لونها فبدت فاترة واهنة، كل شيء أمامها باهت وعيناها تائهتان باعياء، وفي كل مرة تنتابها نوبة الغثيان تقذف ما في جوفها حتى تكاد روحها أن تسل من جسدها دفعة واحدة ثم تعود إلى بدنها فيرتجف كل شيء فيها، أصابعها مرتعشة، رموشها السوداء الطويلة ترتعش مع رذاذ الدموع الذي يندفع عنوة من مآقيها، وتعود تهوي برأسها على الوسادة في استرخاء مكدود ولهاث سريع أشبه بانسان يحمل على كتفيه أشياء ثقيلة، هذا الطفل الذي لم يخلق بعد يربك جسدها ويعصف بصحتها وهي تقاوم ضعفها من أجل بقائه، تنهدت، كل جزء فيها يتنهد ويبكي سعيداً ومتعباً، كل مشاعرها المضطربة تجمعت وتدفقت في ارتعاشاتها في عينيها

المنكوستين في وله وهي تتحدث إلى زوجها واهب هذه الحياة في بطنها، إنه من صنع روحاً جديدة في كيانها، يقبل هاشم كفيها بحنان:

تجلدي يا عزيزتي من أجل حلمنا القادم

همست في اعياء تعصر كفه تتشبث به

هاشم لا تتركني وحدي

ويمدها بحنانه، بكل ما فيه من قوة على الحب

لن أتركك، سأتصل بك، سأزورك

دمعت عيناها.

لا أريد الرقاد في المستشفى عد بي إلى البيت.

ولكن الطبيب يراك مجهدة وبحاجة إلى المغذي

ازدردت ريقها وقد بلغ بها الاعياء كل مبلغ

وقف يحكم عليها الغطاء ثم قبّلها على جبينها

استريحي الآن يا عزيزتي وسأزورك في المساء.

ودَّعها وانصرف، انه سعيد، سعيد جداً، يود لو يطير في الهواء أو يقفز فوق السحاب، هذه المرأة التي يحبها تمنحه كل شيء جديد في حياته، أحياناً كثيرة يحس بها كما لو كانت قطعة من الجنة، قطعة من النور في نسيمها المرهف ووهجها الذي لا

ينطفىء، لها رونق غريب، شيء تسعد به عندما تقترب منه وتحزن كلما ابتعدت عنه، هذه المرأة التي يحتاجها كل رجل لأنها تملأ الحياة حيوية وتدفقاً عاطفياً لا ينضب، ثم لأنها تزرع السعادة فوق الصخور اليابسة.

وقف أمام البيت الكبير، وثمة وهج غريب يشتعل في صدره وابتسامة ضبابية ترقص فوق شفتيه، يدفع الباب، يحس بها خفيفة كأنها سحابة ندية، يطالعه وجه أمه العابس تجلس شاردة غارقة في التفكير، اقترب منها كان يتوقع منها أحاسيس الفرح تزغرد على محياها وبهجة غامرة تكتنف قلبها تقذفها همساً ناعساً في وجه ابنها في فرح وحبور، لكنه ذهل لمرآها البارد فاقتضب.

ماذا حدث يا أمي؟

تشيح بوجهها عنه لتخفي استياءها:

مجهدة

وفي خيبة سقطت كالصاعقة فوق رأسه:

كنت أتوقع أن تضميني وتفرحي لفرجي..

فوخز في صدرها لحن صوته البائس ورأسه مطرق فتألمت وافتعلت مشاعر جديدة.

ـ سعيدة بك، سعيدة بك يا ولدي وبحمل زوجتك لكن سامحني لأني مجهدة.

تنهد ثم قبلها على رأسها.

ألف سلامة لك يا أمي.

وقبل أن ينصرف سألته وعيناها ترنوان إلى الأرض

وكيف حال زوجتك؟

دهش، صمت طويلاً ثم أردف وسحابة كبيرة من الذهول ترتسم على وجهه

إنها مجهدة، فضل الطبيب بقاءها في المستشفى لحين شفائها.

أتمنى لها الشفاء.

حدق بوجه أمه، انه لا يعرف سر تقلبها العاطفي، هل حقاً هي مجهدة كما تقول أم أن هناك شيء يشغلها، عاد إلى غرفته وكان الفراغ بانتظاره، ثمة صوت غائب يناديه ويدعوه ليستريح، ليدخل الحمام، ويأخذ دوشاً كعادته والبجاما النظيفة والمنشفة مطوية ومعلقة على الشماعة، لكن قهوته غير جاهزة، الجدران تحاكي وحدته.. يخاطب نفسه لاهثاً وراء شبح ميساء.. كم تترك فينا المرأة التي نحبها فراغاً عريضاً لا يمتلىء بأي شيء السكون يلفه في كل ناحية، بيد أن همهماتها الناعسة

وحزنها الصامت عندما تتضجر من مشاكل البيت يرتسم في مقلتيها البريئتين، تستطيع أن تقول كل شيء في عينيها، إنه عطش للقائها فهو يرتاح في دفء عينيها، يستقر في صمت روحها لأنها مرفأ يرتاح عند أعتابه حينما تموج به الحياة في متاهات مختلفة.

جلس على مكتبه يحاول أن يكتب مقال الغد وعبثاً استطاع استجماع أفكاره ما زالت همساتها تنطلق في أذنيه بحنان وتدعوانه إلى الاقتراب دوماً منها فهذه المرة الأولى التي تصبح فيها ميساء غائبة. لقد قرر منذ الأمس أن يكتب في موضوع الشيشان، هذه المقاطعة المحاصرة من قبل روسيا، وكيف تحاول ضمها قسراً ثم تحاربها حرباً شرسة حتى تستسلم، لكن المقاتلين الشيشان يقاومون ببسالة وشراسة، يحدوهم الأمل بالنصر طالما هم على مبادىء وقيم، هؤلاء الأبطال مدرسة يتعظ بها أمثالنا، ومن نحن؟! ألسنا الدول المسحوقة التي تقف في الطوابير الأخيرة في عداد الدول المتقدمة، العناد والاصرار رغم تجاهل الدول الكبرى لحقوقهم وسلبيتهم في معالجة هذه المشكلة.

رمى القلم جانباً، افتقد مكانها إلى جانبه، كانت تجلس وتطبع ما يكتب وتشاركه، وتلهمه، والقهوة، انه لا يعرف أن يكتب دون أن يشرب فنجان القهوة الخادمة تعرف صنع القهوة لكنها ذات طعم ونكهة من يدي ميساء الطيبتين، ما أجملها

وهي تجلس إلى جانبي كقطعة من الطهر ترتشف القهوة، ترفل بثوبها السماوي الجميل وترقص بسماتها الهادئة فوق شفتيها، وعيناها تنطقان بكل مشاعر الحب، المرأة الدافئة يعني بيتاً دافئاً وحياة مريحة.

انتفض، تذكَّر شيئاً، فيوم غد هو موعد الانتخابات، فلا بد أن يستعد ويغطي هذا البرنامج صحافياً.

كانت البلد مزدانة في هذين اليومين بكل مظاهر الانتخاب، البوسترات اللاصقة، الخيم، البهرجة الكبيرة، والصحافيون على أتم الاستعداد، بل هناك حالة استنفار اعلامية ضخمة.

كان محمد في حالة قلق تساوره الشكوك لأن ثمة شخصاً ظهر في الأفق جاء ليحتوي بعضاً من الأصوات لتشتيتها عن محمد من يعرف «غانم بهلول» إنه اسم غريب لم يسمع عنه في أية مناسبة سياسية أو تظاهرة ثقافية، لكنه رجل غني ينصب كل يوم موائد الطعام الشهية ويقدم الخدمات الجليلة لكثير من المواطنين حتى أن أحدهم قال يوماً «الرجال أفعال وليس أقوال» لقد أنقذ أحدهم من السجن، وأعاد واحداً إلى وظيفته بعد أن طرد منها ووظف أحد الشباب العاطلين، إن كرمه وبذخه قد فاق بذخ هارون الرشيد! له باع كبير في الأوساط الراقية ذات النفوذ والهيمنة، انه نموذج طفيلي ينتعش في تلك المجتمعات التي تقيّم الإنسان بمقدار خدماته المادية، وهذا

الرجل غريب الأطوار لا يعرف أن ينطق بحرف أبجدي واحد، لكنه يعرف كيف ينفذ إلى القلوب، مضت أيام وهو يستعد لهذا الأمر، فصاروا ثلاثة أشخاص بعد أن كانا اثنين محمد والمهندس عبد العزيز المرزوقي، وقد بدا أن محمداً فيما مضى يستقطب الأنظار إليه أكثر من المهندس عبد العزيز المرزوقي الراجحة كما يتوقع الناس الآن، فبدا محمد يائساً قلقاً. .

التقاه هاشم فقال له ليهدىء من روعه:

لا يهم أن تفوز يا عزيزي طالما أديت رسالتك وقلت كلمتك، وكانت هي تلك فرصتك التي طالما انتظرتها.

لم ينبس محمد ببنت شفه، صمت كأن على رأسه الطير.

وواصل هاشم حديثه

ثمة خطة محكمة في إبراز غانم بهلول لاسقاطك في اللحظة الأخيرة.

هز رأسه بايجاب ثم أردف:

السياسة لعبة قذرة والمواطنون ضحايا!!

ابتسم هاشم ساخراً.

ـ من يقف أمام ألاعيب الكبار يا محترم، حتى وإن نلت مقعداً في المجلس، ما قيمة ما تقوله إن لم ير النور.

ـ المهم هو أن نؤدي تكليفنا الشرعي ونلقي كلمة الحق في وجه الباطل.

فجأة ابتسم محمد وهو يربت على كتف هاشم.

نسيت أن أبارك لك، لقد اسرت لي أمي بذلك.

احمر وجه هاشم، فهمس

ـ اشكرك يا عزيزي.

ـ أتمنى أن يكون صبياً بطلاً.

قهقه هاشم:

ـ مولود في الزمن الضائع.

قال هاشم كمن يتفقد أحداً:

أين حسين إني لم أره منذ الأمس.

قال محمد وهو يبتسم:

ألا تعلم أنه سافر ضمن لجنة إغاثة إلى مسلمي البوسنة والهرسك، لقد استقطعنا جزءاً من أرباح الشركة لنشتري لهم الملابس والبطانيات وقد ترأس الوفد إلى هناك، سرح هاشم طويلاً وثغره مبتسم، إنه يعرف حسين يفهم طباعه جيداً، قال:

إنه رجل فظيع، هذا حسين، لكن لم يقل لي

ـ إنه لم يرك، كنت مشغولاً بزوجتك.

ـ أجل فقد كانت ميساء متعبة وكثيرة الغثيان، لم أستطع مفارقتها

قال هاشم مستدركاً.

ـ وماذا فعل عماد مع زوجته؟

ـ لا أدري، إنه صامت، بل غارق في صمته، وزوجته لم تتصل وأولاده قد التحقوا بأمهم، إنه منعزل ولا يحب أن يتدخل أحد في شؤونه.

جاءت فتوح قائلة لهاشم.

ـ ما أخبار ميساء؟

ـ في المستشفى.

قالت تفتعل الاشفاق والحزن:

ـ الحمد لله على سلامتها، إن شاء الله تعود إلى بيتها بسرعة.

ـ هيا تعالا لتناول العشاء.

وجلسوا جميعاً، عماد برأسه المطرق وحزنه الصامت، وهاشم الذي يأكل وهو في عجالة الزمن، ومحمد الذي يفكر، عقله في حالة صراع لا يهدأ، وفتوح مسترخية هادئة على غير عادتها، فمصدر الاشعاع قد غفا، والأطفال يلتهمون الطعام

بأحاسيس بريئة لا تعرف من دنيا الكبار شيئاً، وأمهم الغضبى ثمة شيء يضج في صدرها، عيناها تترقبان الباب بقلق.. تتأفف، تنفث أنفاسها الساخنة بغضب، وتتمتم إنها تأخرت اللعنة على الشيطان، قالت فتوح

من هي؟

لم تقل الخالة شيئاً، تحاول الهروب، حتى سمعت صوت الباب يصفق فوقفت بعصاها كالطود الشامخ، عيناها تنفثان الغضب، قالت لناهد «التي تدخل مرتبكة، متلعثمة».

ـ لقد كثر ذهابك وإيابك في غياب زوجك، وأنت أمانة في عنقي.

ارتعدت فرائصها، ازدردت ريقها، لا تدري ما تقول فقد انعقد لسانها.

صرخت الخالة:

ـ ما بك؟ ثمة شيء تخفيه عني.

هتفت في لوعة

ـ لا شيء.. لا شيء صدقيني.

ثم صعدت إلى غرفتها فارَّة من العيون اللائمة تائهة مع حيرتها واضطرابها.

تناديها الخالة:

ـ تعالي لتتناولي العشاء.

تجيبها باكية

ـ لا أريد أرجوك دعيني وشأني.

كلهم يلاحظون غيابها المتكرر عن البيت، لكن ليس لأحدهم الجرأة أن يخاطب زوجة أخيه في لوم، ارتمت على فراشها باكية، تهتز شرايينها، تندب ضعفها، لقد وقعت في أحابيل هذا الرجل، شيء يشدها إليه بقوة، وهي تقاوم أن تفكر فيه وأسواط الضمير اللاذعة تلسعها، توبخها، تؤنبها، تثير وجدانها الغائب الغافي تحت تأثير هذه الرغبة القاتلة، تتقلب في مضجعها كل ليلة قد جفاها النوم وساورها القلق، وهاتف العشق المحموم يهدهد أحلامها، لقد بثها لواعج قلبه واعجابه فسهمت في خيالها وذابت في كلماته، لم تعد تر في الحياة غيره، وزوجها الرجل المسكين الذي وهبها الثقة ومنحها الأمان طمست ملامحه الجميلة في شبح هذا الرجل العابث فتسربلت في متاهات الضياع.. تجتنبه، تخافه، تهرب من عينيه الهادئتين والخوف يطحنها، يحطم كبرياءها وكرامتها، المرأة الضعيفة التي لا تتسلح بسلاح الايمان والقوة في مواجهة الحياة يجرفها التيار في متاهات بعيدة فهي في حالة سقوط لا محالة، تتخبط في شهواتها كالعمياء لأنها تعيش لأنوثتها فحسب، كان جسدها هو الإله الذي يرسم تحركاتها في الحياة

ومقياسها في تقييم ذاتها. . عينان ساخنتان، وجسد فائر، وملامح هائمة، ثم عواطف ملتهبة، كل شيء فيها يتحفز إلى خارج حدود الذات وفوق الشرع وضد التقاليد. . قوة نفسية عارمة تضطرم في أعماقها، تجعلها في حالة وجد وهيام مستعر، الآن عرفت قيمة الايمان حينما كان حسين يربيها ويعلمها ويغرس فيها تلك الثمار لتحصدها يوماً ما، بيد أنها استهترت بهذه الموازين وفهمتها على أنها نوع من الطقوس والعبادات الجوفاء التي لا قيمة لها ولا رجاء، العفة، الشرف، الأخلاق. . المقاييس التي ضربتها عرض الحائط، لحظة ضعف تشدها إلى عالم مسحور بنشوة هزيلة سرعان ما تذبل وتذوي. . تنهدت، شردت ببصرها تفكر ودموعها مسترسلة تحترق مع نشيجها المر «لا بد أنني سكرى، لست إلا في حلم مزعج، لم أعد أحب حسين، لم أعد أطيق بيتي، بيتي هذا الذي كنت أحبه أصبحت أتمرد عليه، لم تعد لي رغبة في الحياة، إنني لا شيء، بلغت أقصى درجات الضعف والهوان، ماذا عرفت عن هذا الرجل، هل هي وسامته التي سحرتني، ان نظراته كالسهام النابتة اخترقت صدري واستقرت فيه لا أستطيع اقتلاعها، وقلبي ينزف وأكاد أنفجر، ارحمني يا رب، لا تتركني وحيدة أكابد هذه المصيبة دون عونك، ماذا أريد منه؟ وماذا يريد مني امرأة متزوجة وأم؟ ولقاءاتنا الحرام في الأسواق والمحلات لنتبادل النظرات؟!! مجرد نظرات؟! الحمد لله أنني

أقاوم لأحافظ على ما تبقى مني؟! يا رب ماذا يحدث لي، هل أنا مجنونة أم معتوهة؟ هل أخون حسين الرجل المؤمن الذي كنت أحبه من صميم قلبي.. لا.. لا.. كاذبة لو كنت أحبه لما حدث كل هذا، إنني لا أملك سلاحاً واحداً للمقاومة، لكنه أثار فيَّ احساساً كامناً وفجر فيَّ شيئاً كان راكداً.. و.. و.. أطرى محاسني!! لقد اكتشف فيَّ أشياء لم يكتشفها حسين، اللعنة.. حرام.. هذا كله حرام يا امرأة أنت حشرة تتمرغ في الوحل، مجرد التفكير في رجل أجنبي حرام.. «لم أعد استطع الاحتمال، حبه وعشقه فوق الوصف والخيال إن فيه ما يسحر وما يبهر، شيئاً ذائباً فيَّ لم يعد قوياً متماسكاً كما كان.. يا الهي ماذا لو عرف حسين؟! إنها فضيحة شرف، بل كارثة، مصيبة لو عرفت خالتي، أغثني يا رب، لماذا لا يغيب عن ناظري؟ إن صورته في مخيلتي لا تبارحها، وصوته الأجش يطرب مسامعي ويجعل كل أوصالي منتشية بهتافه، أريد أن أنساه، أن أعود لزوجي بروحي وكياني لا جسدي فقط، لا أحب الحياة مع رجل مخدوع، يا رب انقذني من هذا الصراع المحموم، انقذني، أنقذني، كم أنا قبيحة، خبيثة، لعينة، أنا أستحق القتل، أنا جرثومة ينبغي أن يتطهر منها حسين، لم أعد أستحقه، وبناتي، أين بناتي؟ لقد نسيت أنني أُماً.. والأمومة أقدس من أية مشاعر مزيفة ينبغي أن أشق على نفسي حتى أنسى هذا الشيطان الذي ظهر أمامي في الطريق، لكنه يلاحقني.. نعم يلاحقني..

ولكنني سعيدة به رغم كل شيء، سعيدة بنظرات الاعجاب تتسلل إلي، خلسة وتصافح كل خلية في جسدي.. ووو.. ان شياطين الأرض كلها قد تجمعت في رأسي الآن، لم أكن أتخيل أنني مجرمة بهذه الصورة»..

فجأة رن جرس الهاتف.. حملت السماعة.. وكان الطرف الآخر هو ذلك الرجل، ارتجفت، ارتعش صوتها بشيء من الخوف والاستئناس، يأتيها صوته هادراً بالعاطفة المحمومة، يعدها بحياة عريضة وحب لن يموت وسعادة أبدية، وهي تنتشي وفي يديها رعشة حائرة بين الرفض والاستسلام، بين الخوف والرجاء وأهدابها الطويلة ترقص فوق عينيها الذابلتين لفرط السهر، ثم تثوب لرشدها في لحظة خاطفة، تدعوه أن يتركها لحياتها، وأن هذا الطريق شائك ومحرَّم، ويقطع عليها الطريق بلوعته يصفها وهو مذبوح، أسير هواها.. لقد فقد مقاومته هو الآخر فلم يعد يُطيق الحياة بدونها.. ثم تدخل، ابنتها الكبرى على حين غرَّة فتضطر إلى القاء السماعة ترقد ابنتها في حضنها، تضمها، تتحسس صدرها وادعة، واغفاءة عذبة تدغدغ عينيها، فتحملها إلى الفراش لتنام. بينما يرن الهاتف ثانية فتعدو إليه خائفة وبصوت مرتعش ترد، وكان المتكلم حسين، أحس بها متلعثمة، فاقدة لتوازنها ونبرات صوتها المضطربة.

قال لها: ما بك؟ تعللت بأسباب وأعذار، لكنه فهم أنها

الحالة الجديدة التي تمر بها زوجته، إنها متغيرة وسيعثر في يوم من الأيام على السبب.

قال لها إنه سيأتي غداً الساعة الخامسة مساءً، وبعد أن اطمأن عليها وعلى بناته وأهله ودعها.

ألقت السماعة وهي تشعر أن رأسها يضج بالصخب، والصراع يعصف به، الأفكار والأوهام كلها تزدحم في مخيلتها، لم تعد قادرة على الاحتمال فأخذت حبة منوم ورقدت في فراشها وعيناها ساهمتان، حتى ثقل جفنيها بالنعاس.. ونامت العاصفة.

الجزء الثامن

كان عماد يتململ في ضيق وتبرم، عافت نفسه كل شيء، ترك جهاز الكمبيوتر يأن لغيبة أصابعه وأوراقه مبعثرة، استبد به الشوق لأولاده وفريدة، ربما هي شيء قد اعتاد عليه فتلك الأيام التي انطوت برهنت حاجته النفسية إليها، هذه الحاجة التي لا يستطيع أن يفسرها، فهي قد تركت فراغاً كبيراً في حياته، إنه شيء أشبه بالتعود، لكن تلك المشاعر المتدفقة التي تكتنف الرجل ازاء المرأة قد تبلدت في صدره ناحيتها، لكنهم أولاده، ريحانة فؤاده بسماتهم الراقصة فوق شفاههم البريئة، لقد حدث كل هذا بسبب خجله! تردده!حيرته ازاء مشاعر مضطربة اختلجت في قلبه منذ سنوات بعيدة، هذه الفتاة التي لم يستطع أن ينساها لفرط تأثيرها الكبير عليه، حاول أن ينساها، حاول أن يبدد تلك العاطفة المتضخمة في قلبه فلم يقدر، في

الجامعة وفي أروقتها المزدحمة التقاها تحمل حزمة من الأوراق، اجتذبته بعنفوانها وحيويتها، مشدودة القامة، مرفوعة الهامة، كأن في عينيها بريقاً يتحدى الزمن، تتلفت حولها بثقة وتخطو خطواتها بجرأة محمومة، ثم حمرة وجهها القانية تفضح انفعالها الذي يستبطن أنوثة حالمة، استعذب نقائضها الرائعة، وقفت أمامه تقدم إليه منشوراً قائلة في نبرة طفولية باهتة «هذا بيان قائمتنا الانتخابية أرجو قراءته»! ومضت تجر وراءها عاصفة من الصراع الفكري الذي يعصف برأسها الجميل وسيلاً من المشاعر الساخنة بفورة الشباب، وتناهى إلى سمعه صوتها وهي تضاحك زميلتها «لقد سبقتك في توزيع البيان» استدار ناحيتها ونظارته السميكة أوشكت أن تسقط فدفعها بأصبعه إلى عينيه، وبصمت يجتر فيه حسرات التمني ولوعة الشوق راح يتأملها، شيء مبهم شده ناحيتها، ومنذ ذلك اليوم انفتقت جراحه واشتعلت لوعته النازفة بأحاسيس صاخبة لا تهدأ. نفض عماد هذه الخواطر التي أشبه بأطياف باهتة تموج في رأسه، استقل سيارته قاصداً فريدة حيث بيت ذويها، وعادت هتافات الأيام المنصرمة تلوح في أفق الذكريات، وها هو يسمع صوتها الناعس يحتدم مع صرخة مبادئها هاتفة في قاعة تضج بالطلبة والطالبات «فلنقف كلنا وقفة واحدة أمام هذه الشرذمة التي تريد زرع الطائفية في صفوفنا» ويصفق لها الجمهور. . هذه هي «هنادي» القصة الذكرى التي عرفها قلبه لكنه كان خجلاً منطوياً

على ذاته، يهاب هذه الفتاة التي كانت تثير احترامه واعجابه، نموذجاً قلما نصادفه في حياتنا، فاندفع إليها كالمسحور، يقف أمام فصول محاضراتها، ينتظرها، يترقبها، يتحسس خطواتها بلوعة، كانت دائماً منفعلة تحرك كل جزء فيها ناحية هدف، لم تسترح أو تهدأ ومجموعة صديقاتها حطن بها كالنجمة الساطعة وسط غيوم سوداء، في احدى الردهات لمحته، فاندهشت، هزت رأسها في غرابة ثم انصرفت كعادتها. . وقف يوماً يتأمل حاله في يأس، ما الذي شده إلى هذه الفتاة العاصفة المشتعلة بالحماس تتقاذفها أمواج هذه الأحزاب هنا وهناك، إنه احساس، شيء يضج به صدره ويتعذر عليه دفعه، ربما القوة التي يفتقدها في ذاته أو الصورة المنشودة التي يتوق أن يتشكل بها متمثلة في هنادي، يكفي أنها فتاة متميزة عن باقي الطالبات اللاتي يراهن في الكلية، هن صورة روتينية اعتادت عليها عيناه، فتيات مصطبغات بألوان زائفة قد انطفأ بريقهن الحقيقي النابع من الفؤاد، واستعضن عنه بلمعة كاذبة سرعان ما تخبو عندما تقترب منها عن كثب وتكتشف الخبايا الباردة، لكن هنادي الإنسانة البسيطة التي تدهشك بسحرها الأخاذ وببريق عينيها الذي ينضح بهموم كبيرة وخلجات حساسة تستطيع أن تشدك إليها قسراً، وتترك في نفسك أثراً لا ينمحي على مر السنين، حتى جمعتهما الصدف بلقاءات وحوارات حاول أن يستجمع فيها كل ما يملك من فكر وعاطفة وطاقة ليعلن بها عن

وجوده وحيرته وسكونه الذي طالما تجاهلته وغرق في سباته العميق يتقلب على جمر من نار.

لكن ثمة قوة تدفعه عنها وتعقد لسانه عن البوح بمكنون نفسه، حتى جاء ذلك اليوم الذي سحبت فيه الأقدار تلك المخلوقة عن دربه حيث تزوجت هنادي من أحد شباب الكلية من الدفعة الأخيرة وسافرت معه إلى المملكة المتحدة لتحضير رسالة الماجستير، وغابت تلك الشمس الدافئة التي أشرقت في حياته لفترة ومعها غابت ضحكته وعافيته وازدادت لوعته، حاول أن ينسى لكن محاولاته كلها ذهبت شططا، فصار يبحث عن هنادي في وجوه كل الفتيات وكل النساء فلم يعثر على أثر من آثارها، كأن الدنيا أتت بها إليه لتعذبه، لتحرقه، ومضت سنوات حتى ألحت عليه أمه ليتزوج، وبعد اليأس والاحباط من البحث عن هذه الضالة المنشودة التقى فريدة صورة نقيضة لهنادي، ونشأت بينهما تلك الصراعات النفسية الصامتة، فلم يستطيع أن يحبها أن يقترب منها ويفهم دخيلة نفسها، كان يراها هيكلاً ضخماً يختزن كل تفاهات الدنيا، كان عليه أن ينصرف عنها بوجوده وكيانه، ويخفي تلك العينين الذبيحتين بدموع الانتظار خلف نظارة سميكة، قد فهمت فريدة أن تلك السدود هي قدر ينبغي عليها أن تحتمله من أجل الأولاد، نعم الذرية هي الرابط القوي الذي يذوّب كل الخلافات العاطفية والمشاعر النفسية المتنافرة، ويضفي على الطرفين شيئاً من الرضا والقبول

بالمصير كنوع من التضحية والاذلال لتسير الحياة وفق العرف السائد، تنفس عماد الصعداء وهو يدوس على فرامل سيارته ليقف أمام بيت بسيط، صمتت ذاكرته وأطبق جفنيه بتبرم، سحب نفساً عميقاً ثم أطلقه في الهواء، شد جسده الصغير بقوة لعله يفر من هذه الذكريات التي تبعث في صدره الألم في وقت هو أحوج ما يكون فيه إلى الهدوء والتريث.

وقف أمام الباب الكبير يضرب الجرس ففتحت الخادمة الباب، لمح في الداخل أولاده يلعبون، لم يشأ أي واحد منهم أن يندفع ناحية والده، مشاعر باردة تراكمت مع سنوات الاهمال الصامت.

حيته أم فريدة بهدوء وقادته إلى الصالون وهي تستطرد

لقد مضى ثلاثة أشهر دون سؤال أو حتى. .

قاطعها مغتاظاً بلهجة متكبرة:

ـ أرجو أن أتحدث إلى فريدة لوحدنا ولا أرغب بتدخل أي طرف.

أطرقت المرأة برأسها إلى الأرض صامتة كأن صفعة ساخنة قد ألهبت كرامتها، ثم هبت واقفة «حسناً سأناديها».

جاءت فريدة فبدت هذه المرة أشد ضعفاً، والشحوب يرتسم على ملامحها الكبيرة وعيناها غائرتان لفرط البكاء، لمحته بقلب يرتجف هلعاً، شيء تخشاه كلما التقت عماد،

جلست أمامه حزينة قد مزقها العذاب، ودون مقدمات قال لها:

ـ فلنعد إلى بيتنا الآن.

زفرت أنفاسها بعنف تحاول أن تشد على أعصابها حتى لا تنفجر

وعاد يقول ثانية:

هيا جهزي الحقائب

شدت قامتها واقفة تصرخ:

ـ هل هذا هو اللقاء الذي كنت أرجوه طيلة هذه المدة، حتى الاعتذار ثقل على لسانك، ما أنت أيها الرجل؟! صخر، جماد! ألا تحس بي؟! ازدرد ريقه في تلعثم لا يدري ما يقول، اقترب منها يمسك ذراعها هاتفاً

ـ فريدة، أرجوك، سامحيني أنا لا أعرف كيف أعبر عن شعوري.

دمعت عيناها وهي تضع رأسها على صدره هامسة

ـ لقد تعبت، تعبت يا عماد منذ سنوات طويلة وأنا أبكي بصمت، لعل إرادة الله قادرة على تذويب حاجز الجليد بيننا

ربت على كتفها

ـ هيا تعالي إلى بيتك، جهزي الأولاد.

هزت رأسها موافقة.

وفي لحظات أعدت الحقائب وانضم إليها الأولاد في حركة رتيبة

قالت أمها وهي تودعهم:

ـ أتمنى أن تكون هذه هي المرة الأخيرة لخلافكما.

ابتسم عماد وهو يهز رأسه في رضى

ـ إن شاء الله.

وعادوا إلى البيت، وتناهى إلى مسامعهم صوت بكاء وعويل وصراخ.. فزعوا، ترك عماد أهله مندفعاً إلى الدار مرعوباً وهو يصرخ برجفة «ماذا حدث؟!» سمع فتوح تصرخ «لقد ماتت خالتي، ماتت الغالية» انتبه إلى جثة أمه مسجاة على الكنبة التي اعتادت عليها مغطاة بملاءة بيضاء ومحمد يضع رأسه عليها باكياً بحرقة، وحسين واقف يتأملها صامتاً والدموع قد تحجرت في مقلتيه، أما هاشم فكان يجلس عند قدميها يعصرهما بأنين مذبوح يهتف «أمي.. أمي كلميني» والنسوة مع الخادمات يبكين وهن يلطمن وجوههن مدهوشات، كأن موت الخالة هو نهاية العالم، هذا القدر الذي فاجأهم هذه الظهيرة حيث موعد الغداء، أتت الخادمة تنادي سيدتها لتناول الغداء مع أولادها وجدتها جالسة في صمت ورموشها متصلبة وجسدها بارد وعيناها تطلان إلى ما وراء الحياة حيث العالم الضبابي الذي ترفل فيه الأرواح الهادئة، لم تكن تشتكي أو تتألم محاطة بأحبابها كعادتها، صوتها المتحشرج في نغماتها

المتضخمة يدق في مسامعهم وعصاها ما زالت قريبة منها وفنجان الشاي تائه عن أصابعها تتبعثر قطراته على المائدة المنصوبة أمامها، أسدلت الخادمة جفنيها الثقيلين لتطبقهما على هاتين العينين السامدتين، ومددت جسدها على الكنبة تهتف في ذعر وكل أوصالها مرتعشة «ماما. . ماتت» يهب الجميع من المائدة مذهولين، يتجمعون حولها تمزقهم الصرخات ونوبات البكاء الحادة، يقلبون جسدها لعل الخادمة قد اخطأت التشخيص، لكن الأمل متعذر والرجاء بعيد، فموت الأم هو موت البيت بأكمله، موت الحياة الولود بالدفء والحيوية والنماء، النظام الثابت ذو النسق العائلي المتين يذوب أمام عيونهم في دهشة. . شيء كبير أصعقهم، وأحاطهم بمشاعر مخيفة، ماذا سيدفع لهم الزمن أكثر من كل هذه الاحباطات المزعجة، فشل محمد بالانتخابات، موت أمهم، الصراعات الكبيرة بين الأزواج والزوجات. . وآمال محطمة.

اتشح البيت كله بالسواد وغمغمات حزينة تندس بين الوسائد في الليل وأشياء ضائعة مبعثرة، انهيار العامود الثقيل الذي كان يقف عليه البيت، هدوء رتيب، وملل حزين يرتسم على وجوههم المكفهرة، هذه العجوز التي كانوا يضيقون بها تركت في نفوسهم لحناً مقرفاً للحياة ويوماً عاقراً لا يحمل إلا الملل والرتابة والزهق.

ويسير الزمن محموماً بشظايا هذه الصراعات لأيام ليس لها هدف.

الجزء التاسع

الصمت الثقيل يمزق أركان هذا البيت ويطفىء رونقه الذي مضى، الوسائد المتراصة فوق بعض منذ أشهر قد تناثرت عليها حبات الغبار في حزن، وهذه الأريكة الممددة تتحدى رتابة الحياة وتفرض مكانها قسراً لتقف شامخة وتترنح حولها الشراشف البيضاء، تنبىء بدنيا سقيمة يعيشها كل من في البيت، لهذا انفرطت الأيام عن توازنها الطبيعي وصارت متعثرة متقلبة، فالوجوه تلتقي ببعضها واجمة مكفهرة، تندس البسمات في الشفاه غضبى، وهذه المرأة الحامل في شهرها الخامس تتحمل كل المسؤوليات بعناء ووجومها المخيف يثير حفيظة زوجها، كل فرد يغدو ويروح باحثاً عن ضالته في الحياة يحتوي خلجاته في صمت، هذا الفراغ العريض الذي تركته الأم لم تستطع الأيام أن تحتويه، فالليالي باردة قد عافها الدفء، بيد

أن ميساء حاولت أن تثير هذه المشاعر رغم هوانها، فقد قررت هذا النهار أن تقضي الوقت كله في تغيير ديكور الصالون وشراء مفارش جديدة واقتناء بعض النباتات الداخلية لتوزيعها في الزوايا والأركان، وهذه الوسائد قد استبدلتها بأخرى ذات ألوان زاهية لا بد أن تعاد البسمة فوق الشفاه، هذا الحزن يجب أن يتبدد، فرحت الخادمات بهذه المرأة الشابة وهي تذرع الغرفة بثقة وافتخار تهدهد البيت المنطوي في حزن لتعيد إليه ضحكته، تلمس بأصابعها جدرانه الصامتة لتنطق فيه الحياة من جديد، وهذه المائدة المهجورة منذ شهور رَصت فوقها زهور حمراء وصفراء متعانقة في حب تدعو كل فرد إليها في اشتياق، والمفرش من الساتان الأرجواني يرفرف في مرح الشباب وخيلائه يشد الآخرين بلمعته البراقة، حتى الصحون تتناغم على المائدة في نسق جميل، ثم جاءت بالعمال لتعيد صبغة الجدران من جديد، انتبه أهل البيت، شدهم هذا النور الذي يسطع بجنبات البيت يهمهمون في دهشة.. لكن ثمة شخص يحدق بغضب ويود لو يحطم كل هذه الأشياء فوق الرؤوس، لا تبارح هاتان العينان الحاقدتان تلك المرأة الدافئة وتود لو تخنقها وتدهس بطنها، حتى التقتا عن كثب وتعالت صرخات هذه الحمقاء وعظامها تكاد تتهشم لفرط رجفتها الغاضبة:

- ألا تخشي على طفلك، اذهبي إلى غرفتك، اغربي عن وجهي!

ترفع ميساء رأسها المطرق لتتأملها قائلة:

ـ لو غربت عن وجهك فنظام البيت كله يتحطم، فأنا التي أدير لقمتكم وأعد حياتكم بالصورة المرضية، ولولاي لانقلبت دنياكم رأساً على عقب، ارتعدت فتوح وأوشكت أن تهوي على غريمتها لتصفعها لكنها تماسكت، لقد أصبحت لا تطيقها، كأن كراهيتها قد تجمعت في ورمة ثقيلة مؤلمة تكاد لا تحتمل ألمها وقررت أن تبتر هذا العضو المتورم لترتاح، بينما الخادمات يتعاطفن مع ميساء وينقبضن عندما يلمحن ظل فتوح، والاخرتان ناهد وفريدة صورتان باهتتان تضيعان يوماً بعد اخر.

كانت فتوح تحمل صينية الطعام إلى زوجها في شقتهم الصغيرة وتتذرع بأنها منهكة ومتثاقلة من هذا التجمع، بيد أن محمد كان ينزعج ويضيق لفرط هذه العزلة التي فرضتها زوجته عليه، ولم تثر ميساء أية معارضة أو تبرم، بالعكس كانت توصي الخادمات أن تعد الصينية في موعدها اليومي حتى حدث ذات يوم!

جاءت فتوح كعادتها تحمل صينية الطعام لزوجها وأولادها، قام محمد يعتذر عن تناول الطعام، إذ قال بامتعاض «ليست لي رغبة في الطعام».

غضبت فتوح واشتدت لهجتها «ربما تنفتح شهيتك في الصالون أكثر».

سخر منها وانصرف، أحست باهانة كبيرة فاتجهت إلى الأولاد ترشقهم بالسباب واللعنات «هيا تعالوا إلى تناول الطعام لم تحدقون بي كالمجانين» التفوا حول المائدة ليأكلوا، بينما لحقت زوجها وهي في أشد حالات العصبية قائلة: «أنا مضربة عن الطعام أيضاً ربما لأموت وتنتهي حياتي التعيسة معك».

تأملها طويلاً وهو يفكر ثم انفجر هو الآخر.

«أنا لا أعرف سر هذه العزلة التي اتبعتيها معنا هذه الأيام، فكل اخواني وزوجاتهم يلتفون حول المائدة وهي المناسبات الوحيدة ليتفقد أحدنا الآخر».

قاطعته:

ـ دعنا نعيش لوحدنا، استأجر لنا شقة ذلك أفضل.

صرخ بقوة:

ـ لا . . لن أدعك تخططين حياتي وفق مشتهياتك.

وبعنف تستطرد:

ـ ولكنها حياتي وأسرتي الخاصة وأريد لها الشيء الأفضل.

ارتعد محمد، أحس بالصواعق تنهال عليه فقال معنفاً:

ـ أنت أنانية وستظلين هكذا، همك ذاتك، رغباتك، أنا

آخر من تفكرين به، وحتى لو كنت جزءاً مهماً في حياتك فلأن الأهمية تدور في ذاتك أيضاً، لماذا تكرهين ميساء هذه المرأة المحترمة التي حملت مسؤولية البيت بعد وفاة أمي وأسعدتنا جميعاً دون حتى كلمة شكر تستحقها، أنا أقدر هذه المرأة واحترمها جداً لأنها تستحق ذلك وان لم يعجبك كلامي فاضربي رأسك في الحائط.

اتسعت عيناها بغضب وملامح وجهها تتخذ طابع القسوة والانتقام، مما دفعها أن تخرج من الغرفة وتصفق الباب وراءها، وفجأة انتبهت إلى أولادها يتألمون، يشدون بطونهم ويتلوون وأحدهم يتقيأ، ثمة شيء غريب، عادت إلى زوجها مبهورة الأنفاس قائلة في فزع «الأولاد.. الأولاد» خرج محمد وهو يصرخ ما بهم؟! وتعالت صرخات أحدهم «ماما آلام في بطني» والآخر يبكي.

حملوا أولادهم إلى الطبيب، وكان تقرير الطبيب يشير إلى أنها حالة تسمم، انبهر الزوجان وأحدهما يحدق بوجه الآخر «تسمم؟! وكيف حدث هذا؟!» وبسرعة فائقة تم نقلهم إلى غرفة مخصصة لغسيل أمعائهم، الدهشة تعقد لسانهما، وبرق خاطر في رأس فتوح قائلة: «إنها ميساء هي التي وضعت لنا السم في الطعام». خرجت من المستشفى إلى البيت لتجد كل من في البيت قائم على قدم وساق، واندفعت دون أن تتكلم إلى شقتها تحمل جزءاً من الطعام وتضعه في الكيس وتقفل

راجعة دون أن تنبس ببنت شفة، ثم تدخل المستشفى ثانية إلى الطبيب تحمل هذه العينة للتحليل، وتأكد بعد ذلك أن شيئاً من السم قد دس في الطعام.

وزادت الدهشة على وجه محمد، انعقد لسانه، وتغير لونه، هذه جريمة بشعة، من هو الشخص المستفيد من هذه العملية؟! وتصرخ فتوح «إنها ميساء هذه الأفعى الماكرة التي تتمسح بمسوح البريئات وهي تضمر لنا كل الشر» فهي تضع لنا الطعام كل يوم في الصينية بيديها هاتين وقد جاءت الساعة الحاسمة لتقتلنا جميعاً، سقط محمد على الكرسي منهاراً يضع رأسه بين كفيه يزدرد ريقه بعناء يكاد حلقه أن يجف لفرط الصدمة «وهل يعقل هذا؟!» تصرخ فتوح بوجهه «يجب أن نقدم بلاغاً إلى الشرطة» تسمّر محمد في مكانه يكاد لا يصدق، انتبها إلى صوت الطبيب يطمئنهم.. «الحمد لله سيكون الأولاد بخير».

استطردت فتوح والشرر يتطاير من عينيها الضيقتين «سأذهب إلى الشرطة لأقدم هذا البلاغ».

استوقفها محمد «لا.. أرجوك الأمر لا يستدعي كل هذا».

أصرت «بل يستدعي».

فخرجت كالعاصفة الهوجاء لتقدم هذا البلاغ لأقرب

مخفر شرطة لتقوم الشرطة باستدعاء ميساء، ودبت معركة عنيفة بين فتوح وزوجها انتهت إلى التهديد بالطلاق، بينما وقف هاشم والقلق يعصف برأسه يدافع عن زوجته وينفي التهمة عنها.

بكت ميساء قائلة:

ـ صدقوني أنا لم أفعل ذلك، لست مجرمة، واشتبكت الأطراف جميعاً في البيت حتى ضغط الشرطي المبعوث من المخفر على ميساء ليغصبها على مغادرة البيت، ووقف الأربعة ميساء وهاشم ثم فتوح ومحمد.

قال محمد:

ـ يا حضرة الضابط أنا أتنازل عن هذه الشكوى

بينما تقاطعه فتوح:

ـ إنها محاولة للقتل ينبغي أن يعاقب عليها القانون.

تصرخ ميساء

ـ ارحموني أنا حامل ومجهدة طوال اليوم من شغل البيت، صدقوني أنا بريئة، ويحمل عنها هاشم مهمة الدفاع.

وبعد التحقيق والفحص والمعاينة لم يصل الشرطة إلى دليل واحد يثبت ادانة ميساء.

وفتوح تصرخ:

ـ إنها عدوة متربصة تتصيد الفرص لتقتلني، إنها كانت تقصدني أنا لا تتركوها . .

يتعقد الموقف وتتضخم الأزمة ليدخل أطراف جدد، والأخوان الآخران يحاولان احتواء المشكلة، أما ناهد وفريدة فتسعيان إلى اقناع فتوح لتتنازل عن هذا الادعاء، وميساء تعاني وتبكي بحرقة وتذبل يوماً بعد آخر، حتى جاء يوم وجدت فيه نفسها تتألم وتصرخ، تشد ظهرها باكية، هاشم إنني أنزف، هاشم خذني إلى الطبيب، فينفرط دمها وتعلو صرخاتها حارة، ملتهبة، وبسرعة جنونية يقود سيارته إلى أقرب مستشفى ليتم نقلها إلى غرفة العمليات، قال الطبيب يطمئن هاشم «زوجتك تجهض فلا بأس عليها» فتجري لها عملية الإجهاض والتطهير كاملة، فالجنين قد تلاشى لتصبح هذه المرأة صفراء ذابلة كالعود اليابس لفرط دمها النازف وشفتيها متشققتين قد هدها الألم، تنهداتها الساكنة ترجح الموت على الحياة تستنجد بزوجها «هاشم انني عطشى» يقترب منها ليسقيها الماء وكل ذرة في كيانه محطمة، لم يعد يصدق ان غيرة المرأة تصل إلى تحطيم الآخرين إلى هذا الحد، جلس إلى جانبها مطرقاً مستاءً من هول الصدمة، الكلمات متعثرة فوق شفتيه والصمت يلفهما . .

وعندما علم من في البيت خبر اجهاض ميساء صرخت فتوح بأعلى صوتها فرحة :

«انظروا . . لقد جاء العقاب الالهي الحاسم فقد كانت تريد قتل أولادي لكن الله قتل طفلها في بطنها . . هذا هو العدل الذي كنت أنتظره!» .

حدق الجميع في وجه فتوح بقسوة، لم يكن الأمر يدعو إلى الشماتة، اكفهرت وجوههم، قلبوا شفاههم في قرف، لكن ثمة همهمات ونشيج يأتيهم من الخادمة الفلبينية القابعة في المطبخ، تخرج إليهم صارخة:

«أنا التي وضعت السم في الأكل» .

استدارت الأعناق والرؤوس إليها، وصادف أن دخل هاشم مطرقاً حزيناً واجماً قد شحب لونه لفرط السهر، انشدَّ إلى الموقف مبهوراً، فالخادمة تعترف أن ميساء بريئة فهي التي وضعت السم في الطعام لتنتقم من فتوح، لتصرخ، أنت مجرمة تهينيني دائماً وتضربيني كما لو كنت حيواناً، ميساء امرأة طيبة وأنا أحبها لأنها تعطف علي وقد كنت خائفة من الاعتراف، ميساء بريئة، هذه المرأة بريئة وسأسلم نفسي للشرطة، لم أعد أحتمل عذاب الضمير.

اعترضت فتوح:

ـ انك تضحين بنفسك من أجلها لأنها تدس في جيبك عشرات الدنانير، هذه حيلة معروفة» .

انفجر محمد غاضباً وهو يشد فتوح من ذراعها

ـ كفى، كفى، أنت المجرمة وأنت الظالمة، قتلت هذه المرأة الطيبة ولوثت اسمها وحطمت أحلى شيء فيها، والآن عودي إلى بيت أبيك من غير رجعة، أنت طالق! طالق!

عنفته وهي في حالة هستيريا:

ـ محمد، اسمعني، محمد أرجوك

طردها من البيت.

ـ اخرجي من هذا البيت دون عودة لقد احتملتك طوال هذه السنين لعلك تثوبين إلى رشدك لكن أملي قد خبا وحياتي معك باتت أشبه بالجحيم.

رفع هاشم رأسه قائلاً:

ـ أما قراري أنا فسأعيش في شقة خاصة خارج هذا البيت لم أعد أستطيع البقاء هنا.

اقترب محمد يعانق هاشم يرجوه أن يبقى، لكن هاشم قد أصر على موقفه قائلاً:

ـ إن زوجتي صنعت المستحيل لارضائكم جميعاً حتى سقط جنينها وأشار إلى ناهد وفريدة.

«من منكما كانت تساعدها أو تحس بعنائها، أصبح كل

شيء جاهزاً ومعداً على أكمل وجه، والآن آن الأوان لأعيش مع زوجتي الطيبة لوحدنا». أطرقت المرأتان بوجهيهما إلى الأرض وهما سامدتان عاجزتان عن الكلام، أعد هاشم الحقائب مع الخادمة ليتم نقلها إلى السيارة ولم تثنيه محاولاتهم جميعاً عن الرحيل.

وعادت للبيت لوعته، بعد أن انطفأت أنواره المتلألئة، وتبددت تلك الأحاسيس الدافئة التي كان يتنسمها الحب والتآلف، واتخذت كل عائلة طريق العزلة، فالشيطان الذي كان يرقص فوق الرؤوس المطأطأة للأخطاء والذنوب قد انتصر، لأن كل فرد يدور حول ذاته ويعانق اماله الخاصة ضارباً عرض الحائط كل ما يدور حوله، فعرف بأحابيله الخاصة كيف يمزق وحدتهم.

قضى محمد أيامه في وحدة حزينة، يعيد حساب الأيام المنصرمة، ويحاول أن يجدد هذه السنين الهامدة التي ضيع فيها كل أحلامه مع امرأة متجمدة المشاعر، فكان يأخذ الأولاد كل خميس إلى أمهم ثم يعيدهم إليه ثانية، وقد حاولت فتوح مراراً أن تتصل به ليعيدها بيد أنه قد أحبط كل محاولاتها، فتفرغ لقراءاته ونشاطه السياسي، ثم كان يعطي الأولاد الجزء الأكبر من اهتمامه ليعوضهم فراغ أمهم، بينما فتوح قد تحطمت أكثر، وتفاقمت عقدتها أكثر من أي وقت مضى وعاشت أيامها تصارع هواجسها المريضة.

الجزء العاشر

ذهبت ناهد مع زوجها في سيارته إلى احدى المحلات التجارية للتسوق وقد أدار زر المذياع ليستمع إلى احدى محطات الاذاعة التي كانت تبث محاضرة دينية لأحد علماء الدين، وبالصدفة كان الموضوع يدور حول الزواج والعفة، وقد انشدت ناهد إلى قول الخطيب وهو يتناول قضية الزنا وعواملها من حيث النظر إلى الأجنبي، ويسوق الأحاديث التي تصف المرأة التي تتمنى رجلاً محرماً كيف أن الله يكبها على وجهها في نار جهنم، واسترسل صوت المذياع الهادر كأنه يطلق سهاماً نارية في قلب ناهد ويشعل في صدرها احساساً بالذنب، ارتجفت أوصالها، كادت أن تبكي، شيء في داخلها يلتاع ويضطرم بحدة، التفت إليها حسين مبتسماً:

ـ ما بك شاحبة الوجه؟

تلعثمت:

ـ لا شيء، لا شيء.

صمتت، ما زالت الكلمات عالقة في رأسها تدق كجرس الانذار تحذرها من الخطوات المحرمة.

وقفت السيارة أمام المحلات، خرجا منها مسرعين، وفي احدى الردهات التفتت إلى «ناصر» وهو اسم هذا الرجل الذي يلاحقها دوماً، كان يقف إلى جانب امرأة صارخة الجمال تكشف عن ساقيها بطريقة فاضحة، وتبعثر شعرها الذهبي في الهواء عابثاً، متوحشاً يتحدى الدنيا، ثم ابتسامتها المجنونة التي تشع صخباً وعنفاً، كل شيء فيها ثائر، محتدم، وناصر يقف أمامها ذليلاً مطأطأ الرأس ساهماً كأنه يتعبد جمالها في محراب شهوته، ارتعدت فرائص ناهد، اتسعت حدقتا عينيها، تجمع الغضب كله في رأسها كاد عقلها أن يطير من لهيب غيظها، هذا الماكر المجنون الخائن الذي عربد بمشاعري وألهب عواطفي بزيف حبه، عضّت على شفيتها وكادت أن تهوي على رأسه وتفعل كل ما تشتهي بجنون، لكنها تماسكت من أجل هذا الرجل المخلص الذي يقف إلى جانبها صابراً يدلها بحكمته على طريق السعادة.

قال لها حسين في دهشة:

ـ ما بك وقد تغير لونك هل تعرفين هذه المرأة؟

تنهدت وهي تحاول أن تتماسك:

ـ أنا أعرف هذه الأشكال؟!!

هز كتفيه بعدم اكتراث، دخلا إلى احدى المحلات، لم تعرف كيف توجه عقلها، كل شيء فيها مشتت مضطرب، أحست بدوار في رأسها.

قالت: حسين أنا متعبة فلنعد إلى البيت..

بدا حسين مندهشاً.

ـ ما بك؟ ماذا حدث لك؟

بامتعاض تجيب

ـ فقط أحس بدوار.

عادوا وثائرتها لم تهدأ، احساس كبير بالخيبة في كل شيء يضج في رأسها تأملت زوجها لم يتغير فيه شيء، ما زال واقفاً أمامها يتأملها بنظرات حائرة ولهى تبحث عن سرها الدفين، ارتمت على الكنبة والفراغ العريض يحيط أفكارها وقلبها، كل حياتها لا طعم لها ولا معنى! ليس لها رغبة في زوجها أو بناتها ثمة اضطراب يدهس كل المعاني الجميلة في الحياة ويذرعها حزناً وكمداً.

صرخ حسين غاضباً:

ـ ما بك منذ مدة وأنت في حالة غير سوية.

شدها من ذراعها بغيظ هز جسدها بعنف.

ـ ما الذي حصل؟ افصحي عن خباياك؟ لما تهربين مني كلما اقتربت منك؟ أين حبك؟ أين حيويتك؟ ماذا حدث لك؟

خبأت وجهها بين كفيها باكية، ثم رفعت إليه عينين ذابلتين منضرعتين.

ـ أنا نفسي لا أدري يا حسين، لم أعد أحبك.

صعق، تلعثم، أحس بفضول كبير يشده إلى معرفة الحقيقة.

ـ ما السبب؟! هل جرحتك؟! أظن أنني احترمتك وأحببتك فوق ما تتصوره أية امرأة، لكن يبدو أن النساء يعشقن الرجل الذي يقسو عليهن ويرفضن الذي يتودد إليهن، طأطأت رأسها إلى الأرض لتخفي حقيقتها المرة لكن نشيجها يثير حزنه، اقترب منها ضمها إلى صدره ومسح على شعرها بلطف وحنان.

ـ ناهد، إن كنت بحاجة إلى الانفراد بحياتك والعزلة لتراجعي نفسك فأنا لا أمنعك، أنا لا أرغمك على شيء، اذهبي إلى بيت أبيك لعلك تستطيعين استرداد عافيتك وحيويتك.

كانت تتمنى لو يصفعها، أو يهنها حتى تبرأ من جرح

الضمير وايلامه، لكنه يفرط في تدليلها فيحملها آلاماً فوق آلامها.

استطردت:

ـ أنا لا أستحقك يا حسين، صدقني أنا زوجة خائنة.

التقت عيناها بعينيه. أحست بلوعته وحبه وأحاسيس تشدها إلى صدره لتختبىء به من غدر الحياة.. قال لها:

ـ «حاولي أن تحبيني ثانية، أظن أن فيَّ ما يدعو إلى ذلك»!

لم تكن تعلم أن هتاف الزوجة لزوجها ملتاعاً حينما تصرخ لم أعد أحبك تذبح قلبه وتشرخ في صدره جرحاً لا يندمل.

وتنتبه ناهد إلى الخادمة تأتيها مذعورة:

ـ سيدتي ابنتك الصغرى متعبة تقول أنها قد عميت:

فزعت ناهد كادت أن تهوي إلى الأرض في طريقها وهي مسرعة إلى ابنتها وحسين يحاول أن يهدىء من روعها، وكانت ابنتها حنان راقدة في فراشها مغمضة العينين باكية.

ماما لم أعد أر شيئاً، لقد فقدت بصري.

تخبط ناهد على صدرها مبهورة الأنفاس، تكاد تفقد صوابها

قال حسين:

فلنأخذها إلى الطبيب.

وعلى الفور تم نقلها إلى السيارة إذ كانت ناهد منهارة إلى حد لا تستطيع أن تحمل جسدها على ساقيها، جسدها يرتعش من الخوف، عند طبيب الطوارىء ترقد حنان حيث تفقد بصرها، فلما أتم الفحص ابتسم قائلاً:

ـ البنت سليمة ربما تتدلع عليكم.

اندهش حسين:

ـ ماذا تقصد؟

ويمضي الطبيب يطمئنهما:

ـ دلع بنات فقط، ربما أحبت أن تثير اهتمامكما ناحيتها، وهذا أمر يفعله بعض الأطفال الذين فقدوا الحب والحنان كنوع من استدرار العاطفة.

بينما حنان صامتة في خوف، لكنها اطمأنت إلى أمها وهي تضمها إلى صدرها.

عادا إلى البيت وحنان ما زالت مغمضة العينين، انفردت أمها بها وخرج حسين وهو يهز رأسه متمتماً «جنس النساء فيه مس من الجنون».

قالت ناهد وهي تهدهد ابنتها وتلاعبها في الفراش:

ـ غداً سأذهب إلى السوق لأشتري الألعاب الجميلة والملابس الفاخرة لك لكني لا أدري كيف أختار ما يعجبك؟

همست حنان ببراءة:

ـ سأذهب معك.

ـ وتمضي الأم باحتيال:

ـ كيف تذهبين وتختارين ما تحبين وأنت عمياء!

فتحت حنان جفنيها:

ـ لقد شفيت، شفيت يا أمي كان مجرد ألم وانقضى.

ضحكت ناهد، ضحكت من كل قلبها وقبلت ابنتها، ضمتها إلى صدرها وكأنها تحضن الدنيا إلى قلبها، لثمتها من أعماقها لأنها عرفت ودون قصد كيف تشد أمها من عالم الضياع والحيرة إلى عالم الواقع بحلوه ومره.

حملت ابنتها إلى صدرها تقبلها ثم مضت بها إلى الصالون وكان هناك حسين يجلس مطرقاً يضع رأسه بين كفيه، انتبه إلى زوجته تقبل عليه بابتسامة وادعة، جلست إلى جانبه ضاحكة مستبشرة، لكنه ابتسم إليها باقتضاب وعقله شارد، ابتلعت ناهد ريقها في غرابة، ماذا حدث له؟ حاولت أن تفتعل

بعض النكات لكنه مكفهر، ثمة شيء يغضبه، حاولت أن تستبين الأمر لكنه قابلها جفلا:

ـ قبل قليل رن الهاتف وعندما حملته رد علي رجل.

صمت حسين هنيهة لاحظ اضطرابها واحمرار وجهها، حدق بها طويلاً ليستطلع علامات الارتباك، وبتلعثم قالت ناهد:

ـ وما لي أنا تحمل عيناك إليّ علامات الاتهام.

وقف بعصبية يضغط الكلمات على لسانه بشدة.

ـ طلبك.. طلب أن يحدثك، وعندما سألته عن شأنه ألقى السماعة في وجهي.

اشتد ارتباك ناهد، واستاءت لهذا الموقف الحرج حاولت أن تبرر.

ـ ربما لا يقصدني أنا بالذات، ربما ناهد أخرى.

أشاح وجهه كأن عينيه جفلتاها تماماً:

ـ الآن عرفت سر تغيرك!

اعترضت، هزت رأسها بعصبية، ألقت ابنتها على الكنبة صارخة:

ـ لا.. أرجوك يا حسين لا تأخذك الظنون.

بقي صامتاً، يحدق بعينيها كأنه يصفع كل جزء فيها ويودع آخر عهود الحب ونعيم الذكريات، ثمة عتاب يجول في خاطره، ولوعة قاسية تندد بهذا الجفاء الذي لا يستحقه، وكانت تفهم نظراته وتحس بتأملاته وكأنها طعنات سكين تمزق قلبها، وقفت أمامه كالذبيحة تتألم، فاقدة كل السيطرة والقوة لتنقذ نفسها من هذا المصير المحتوم.

هذا الرجل الذي كان قبل لحظات عاشقاً يهيم بها حباً ويحاول أن يحقق لحياتها طعماً، تحوّل الآن إلى جبار يدوسها تحت أقدامه باحتقار، هذا الموقف كان نقطة تحول في حياة هذين الزوجين وعلى الأخص ناهد.

قال بسخرية وهو في طريقه منصرفاً:

ـ لك أن تبقي مربية للبنات رغم أني أوشكت أن اتخذ موقفاً أقسى من هذا.

خرج ولهيب النار يكاد أن يحرق كل خلية من خلاياه، تحوّل إلى قوة مدمرة تسحق كل المعاني الجميلة التي كانت تضمهما معا.

لهثت وراءه صارخة «حسين! حسين!» وبتوسل محموم ذائب بمشاعر الغفران تسقط تحت قدميه تحاول أن تقبلها، تشده من دشداشته وهو غير آبه «حسين، ارحمني.. تعالى لنتفاهم» يدفعها، يركلها، لم تعد بالنسبة له سوى كتلة من

اللحم فقدت كل قيمها ومشاعرها المقدسة وألقت في دربه شيطاناً اثماً يعبث بقدره، فخسرته، نعم خسرته للأبد، خسرت حبه وحنانه وتدليله، هذا الرجل الذي كان في حياتها حبيباً مخلصاً، أصبح الآن شبحاً لماضٍ قد انتهى، قد زهدها، بدأ يتوارى عنها، فلحن الاغتراب يعزف في نبضه رغبة عارمة بالاشمئزاز والقرف رغم هذا السقف الذي يظللهما معاً. فمضت سعادتهما من غير رجعة، هذه الشهوة الطارئة التي دغدغت قلبها وألهبت مسامعها بمشاعر كاذبة غلبتها وأسكرتها لتذوي في أعماقها تلك الأحاسيس الصادقة التي اختزنتها في صدر هذا الرجل المخلص حينما حافظ عليها ومنحها اطمئنان نفسه في أحلى الأيام. صار حسين زوجاً سلبياً، عافت نفسه البيت وكان يجالسها على مضض، حاولت مراراً أن تستعيد تلك الابتسامة المشرقة التي تنعمت بها يوماً لكن قلبه قد عافها، لم يعد يملك حبه، انها بالنسبة له قصة حب وهمية انخدع بها فجال في الديوانيات يبحث عن ضالته بين الأصدقاء والأقرباء، بينما اكتظ قلب ناهد باليأس والاحباط، تتقاذفها مشاعر الحسرة والندامة، ونالت عقابها الإلهي لأنها فرطت بحق الله سبحانه وبحق زوجها فضاعت.. وضاع الحب للأبد.

الجزء الحادي عشر

قضت ميساء أيامها الجديدة منعمة هادئة مع زوجها في بيتها الصغير، وكلما تذكرت طفلها الذي فقدته تستاء وتحزن، لكنها سرعان ما تطمئن نفسها أن في هذا مصلحة أرادها رب العالمين، عادت إلى وظيفتها بعد أن استعادت عافيتها، ثم بدأت في استدعاء صديقاتها إلى بيتها لتمضي معهن وقتاً جميلاً، ثم تحاول في بعض الأيام أن تقوم بتنظيم بيتها وترتيب أثاثها، اشترت كل اللوازم التي تشيع في البيت سعادة وبهجة من نباتات داخلية وطيور وتحف أنيقة حتى غدا بيتها آية في الجمال. أحست هذه المرة أن زوجها بدا قريباً منها أكثر ويفهمها عن عمق بعيداً عن المشاكل، ورغم انفرادهما معاً إلا أن حياتهما فيها كل الصخب والاثارة والعمل، خصصت لزوجها احدى الغرف لعمل أرشيف يساعده في كتابة مقالاته

وبحوث، بحثت معه عن كل المجلات والصحف القديمة وعنونتها بطريقة ماهرة أعجبت زوجها وأثرت في نفسه الدوافع الكبيرة للبحث والكتابة وقدمت كل ما هو جديد ومبتكر في حياته، قررت أيضاً أن تدرس مادة الكمبيوتر في احدى المعاهد، ومن ثم اشترت هذا الجهاز لتقوم بطباعة مقالات زوجها، لكنها عن بعد كانت تتابع أحداث البيت الكبير وآلمها طلاق فتوح، انها تود أن تعود إليهم، لكن هاشم يصر على هذه القطيعة وهي لا ترغب في عصيان زوجها، انهما زوجان سعيدان يربطهما الحب والاحترام والتبادل الفكري المشترك، انه بالنسبة لها حياتها ودنياها تراها في اشراقة الصباح واطلالة القمر، عندما يغيب كأنه يقتلع فؤادها من صدرها فتهيم في كل شبر من البيت تبحث عن آثاره ولمساته وعندما يأتيها بجموحه وعنفه وشوقه تضمه في عينيها وبكل خلية في جسدها، المرأة عندما تحب زوجها ترى فيه منتهى الحياة ومنتهى السعادة، فتهب له القوة على الحب والكفاح والطموح وكل معارك الزمن يطويها تحت جناحيه بثقة، ثم ترتسم على شفيته ابتسامة تهلل وجهه بنور سرمدي لا ينطفىء، فترى في وجوه الرجال كثيراً من المعاني، تستطيع أن تفهم الرجل السعيد في زواجه من خلال تلك الهالات الشفافة تتموج مع ابتسامته المسترخية فوق شفتين هادئتين، والآخر الذي يلعق من زوجته كل السم والخيبة تشحنه مشاعر الازدراء وشحوب عالقة في وجهه ضاربة إلى الصفرة،

مبعثها الحزن والفشل مع امرأة سيئة النية، سليطة اللسان تعيش وزوجها في صراع مستمر على سلطة الحياة، وكثيراً ما نخطىء حينما نصف هذا النوع من النساء بالقوة والأخرى والأخرى المطيعة بأنها ضعيفة، فالميزان الحقيقي لا يتأتى من عنف الشخصية وتبذّل اللسان، فالتي فشلت في جذب زوجها بأساليبها الأنثوية الحاذقة عبر لسان رطب جميل وعقل متوهج بالحيل الطيبة الذكية والحب الصادق تلعن حظها بالحياة وتشعر بالخيبة لهذا العجز، فتستفز كل خلاياها وتتفتح مساماتها لكل مشكلة وكل خناقة لتنفجر لتطلق حمم الخيبة المخبوءة بوجه زوجها الذي لم يستطع أن يحبها، عجزت هذه المرأة عن اغرائه واحتواء قلبه لتأسره في حبها، فاتخذت حيلة العاجزين، وقد فاقت ميساء مثيلاتها في أسر زوجها والاستحواذ على قلبه بذكائها وعاطفتها المتدفقة، فكل كلماتها سحر من الحنان وفيض من الدفء، وعندما يغضب تحتوي غضبه بابتسامة حانية تربت بها على كتفه ليهدأ، فحسدتها كل النساء اللاتي يشكين دوماً من فتور أزواجهن وبلادة مشاعرهم انهما يفعلان كل شيء جميل ليزيد في حياتهما حيوية واشعاعاً، وقد وصل هاشم إلى منصب نائب رئيس التحرير بفضل صبرها وجهودها ووقفتها الشجاعة معه، وكان يتمسك بها أكثر ويجن بها حباً ويرى صفحة وجهها في أوراقه وكلماته، يتحسس جمالها المتدفق كل يوم بمعاني الحياة كل شيء في وجهها يتمخض عن معنى جميل

يتذوقه في كل صباح، لون عينيها، صفاء بشرتها، شعرها المتموج الضارب إلى الحمرة، هذه المرأة تبعث في كيانه احساساً كبيراً بقوته ورجولته وثقته بنفسه، دائماً تحدثه عن القرآن، قالت له: لا تخرج من البيت إلا والقرآن في حضنك ولسانك وقلبك، أنا وأنت وثالثنا القرآن، حببت إليه قراءته وطعمه ونكهته، وكان يضعه على مكتبه يتفحصه هدية زواجهما، تلك السنين الطويلة التي تحمل معها أعطر الذكريات، كانت بفضل آيات القرآن التي امتلأ بها صدر ميساء، فقد تربت على هذه التعاليم العبقة فعرفت أصول الزوجية وقوانينها السامية لتسعد زوجها وفعلت، حتى جاء ذلك اليوم الذي كان للحاسدين فيه يداً.

عينت ادارة الجريدة سكرتيرة لهاشم تتولى مهاماً دقيقة تتطلب منها لقاءه بين آن وآخر، كان جمالها يستفز الناظر للوهلة الأولى، أشياء كثيرة تدل على نزق الشباب وتهوره، جريئة المشاعر والخلجات، تتقصد اضفاء الاثارة على تصرفاتها، عطرها يسبقها حينما تود لقاء أحد، قريبة إلى الامتلاء، لها شفتان مكتنزتان، استطاعت بمهارة أن تبرز فتنتها بأحمر شفاه قرمزي اللون وهي تعرف كيف تثير الرجال باهتزازات جسدها المفتعلة، اقتربت من هاشم وهي تضع على شفتيها ابتسامة فيها غنج ودلال، وعيناها تتفحصه بنهم فهو شاب وسيم صاحب شخصية جذابة تعجب النساء، قدمت إليه

الأوراق محاولة أن تثير انتباهه، لكنه لم يعرها أية التفاتة، عندما أدارت ظهرها لتخرج رفع إليها عينيه مشدوهاً، ما هذا الشكل المريب؟! أعاد ناظريه إلى الأوراق ثانية، انهمك في عمله كعادته اليومية، لكنه مع مرور الأيام اكتشف أن لهذه السكرتيرة مآرب أخرى، فهي تحاول استمالته واثارته بكل وسائلها وهو شاب ناجح قد تعرض بالفترة الأخيرة إلى اغراءات نسائية كثيرة وفشلت كل النسوة في خرق قلب هذا الرجل، لكن «سامية» وهو اسم السكرتيرة لم تيأس، كل جزء في كيانها يريد هاشم، وصده وكبرياؤه أشعل في قلبها نيراناً لا تخمد.

كان يخشاها كثيراً ويحاول أن يضع لتصرفاتها حدوداً قاسية لترتدع، بيد أنها تلاحقه بالهاتف في بيته، في كل مكان ممكن أن يتواجد فيه، سمعت عن زوجته أنها لا تحمل ذرية، فخططت للزواج منه، حتى حدثت ذات يوم مواجهة عنيفة، قال لها غاضباً:

ماذا تريدين مني؟ أنت هنا مجرد سكرتيرة فقط وسوف استبدلك بأخرى إن لزم الأمر.

وبلهات محموم تجيبه:

ـ أُحبك، أريدك، أليس لك شعور، ما أنت أيها الرجل لم كل هذا البرود، ألا تحس بي؟!

ويوبخها:

ـ بل أحس بوقاحتك ابعدي عن طريقي.

ـ لن أيأس.. لن..

وكانت تبحث سامية عن حيل جديدة لتهوي بمطارقها على هذا الصرح الجميل الذي شيده هذين الزوجين، طلبت من احدى الحاسدات المقربات لميساء أن تهمس في أذنها أن زوجها على علاقة غرامية مع السكرتيرة، وفعلت هذه الحاسدة فعلتها، لكنها لم تثر في نفس ميساء أدنى شك، بل أيقنت أن من يفعل ذلك ما هو إلا حاسد يبغي هدم عش جميل فطردت من رأسها هذه الفكرة، وتمادت سامية بتصرفاتها حتى دخلت مكتبه ذات يوم وهي ترتدي ثوباً قصيراً جداً وبغنج محموم تحاول استمالته، لكنه يقاوم ويشيح بوجهه عنها، وتشتاط غيظاً.

ـ ما سر هذه المرأة التي هيمنت على قلبك فأعمتك عن كل النساء.

قهقه هاشم، له رغبة كبيرة في إثارة غيظها، فقال:

ـ سأدعوك على العشاء الليلة في بيتنا لتتعرفي على سحر هذه المرأة.

ولم يكن هاشم يخفي أمراً عن ميساء لأن قلبيهما ينبضان في شريان واحد، وعقلهما يشدهما إلى هدف واحد، كان يتحدث إليها ساخراً، قرفاً من هذه المرأة اللعوب التي لم تثر

في نفسه إلا احساساً بالشفقة، وكانت حيلة أن دعاها إلى بيته وعند الباب التقت ميساء، انبهرت، تصاعد لهاثها باضطراب، هل هذه هي زوجة المدير، يا إلهي لم أكن أظنها بهذا الشكل، امرأة مكتملة الأنوثة، يشع من عينيها بريق وهاج يختزن تجارب كثيرة، وجسد مكتنز ملفوف بحرير أحمر، وشعر بلون الكستناء قد انحسر عن جبينها الوضاء بأنوثة بارعة، وصوت رقيق ناعم فيه نغم دافىء يسكب قطرات الحنان في أذن السامع. ابتسمت ميساء إليها تحييها، شعرت سامية بثقل ساقيها، لم تعد قادرة على مواصلة الطريق، يجب أن ترفعي الراية البيضاء وترمي كل أسلحة المقاومة، فأنت أمام امرأة ناضجة تعرف كيف تستثير رغبة زوجها باشارة صغيرة ودون الحاجة إلى كشف المساحات الكبيرة من لحم الجسد. تقزمت سامية وأحست بنفسها تتلاشى، تفقدت بعينيها كل زاوية من زوايا البيت فعرفت بحذاقتها أنها تصطاد في الماء العكر فتراجعت خائبة، وهنا توثق الحب بين الزوجين أكثر من أي وقت مضى، فميساء امرأة متجددة دوماً، لا تدع يوماً من حياتها ينقضي دون أن تشعل فيه فتيل الإثارة والحيوية.

اتصلت بها ذات يوم فريدة وطلبت لقاءها.

اندهشت ميساء عندما لاحظت علامات الارهاق على وجه فريدة وضعفها الذي هو أقرب إلى المرض منه إلى العافية،

بدت سئمة ترتسم الغضون على جبينها تعلن الانحدار النفسي، وجمعهما حوار حزين:

قالت فريدة وكأنها تجتر أحزانها من فؤاد مجروح.

ـ جئتك والقدر يلاحقني باللعنات والتعاسة.

أشفقت ميساء على محدثتها فضمتها إلى صدرها:

ـ أين مرحك ومزاحك، لقد أصبحت عابسة واهنة.

تنهدت:

ـ لقد أتعبني هذا الرجل لم يتغير فيه شيء، ما زال يعيش عالماً منفرداً بذاته.

ربتت ميساء على كتفها:

ـ تريثي يا عزيزتي لا تفقدي الأمل

سقطت دموعها حسرات، وبنشيج تهتف.

ـ عماد لا يحبني، قدري أنه لا يحبني، وقد زادت وحدتي خصوصاً بعد أن تفككت العائلة وأصبحنا نعيش فرادى، ليتك تعودين إلى البيت الكبير لقد كنت لنا الشمعة التي تنور دربنا.

ابتسمت ميساء ابتسامة حانية واستطردت:

ـ كنت أتمنى ذلك لكن هاشم يعترض على هذا الأمر.

جالت فريدة ببصرها في أنحاء البيت واكتست وجهها علامات الرضى والانشراح.

ـ بيتك جميل ومريح.

ـ أشكرك.

ـ وذوقك جميل

اتخذت ملامح ميساء طابع الجدية فأردفت تحدث صاحبتها.

ـ المهم ماذا ستفعلين في حياتك. أرى سحابة الهم تطوف بوجهك.

ـ ربما هو لم يقتنع بي جيداً والحقيقة هي غير ذلك.

ـ ماذا عندك؟

صمتت هنيهة كأنها تتردد ما بين البوح والكتمان، ثم استطردت وعينا صاحبتها تستحثها على الكلام.

ـ لقد اكتشفت أن له علاقة مع امرأة أخرى.

استبعدت ميساء هذه الفكرة:

لا أظن فعماد ليس من ذلك النوع.

هزت رأسها بايجاب:

ـ بل هو كذلك.

ـ وكيف عرفت؟

ـ بطريقتي الخاصة؟

ـ وما هي هذه الطريقة؟

ازدردت ريقها بوجل لكن ثمة قوة تشدها لتعترف.

ـ اخذتني ناهد إلى امرأة تفتح الفال وكشفت لي عن سره

صعقت ميساء:

ـ فال؟! تبنين حياتك على تكهنات خاطئة

وبدت فريدة كمن تدافع عن نفسها:

ـ ولكنها وصفت لي أشياء دقيقة في حياتي كلها صائبة.

ـ كوني عاقلة يا فريدة.

عند ذلك دمعت عيناها والحيرة تمزق أفكارها، تنهدت:

ـ لا أدري ما أقول يا ميساء لقد سلكت كل السبل لإسعاده دون جدوى، جذبت ميساء نفسا عميقاً وهي تحاول أن تبدد هذا الحزن عن صاحبتها:

ـ ليتني أستطيع مساعدتك، لو كان بمقدوري أن أتحدث إلى عماد لفعلت ولكنك تعرفين طباعه فهو من النوع المتكتم الحذر ولا يرغب أن يتدخل أي شخص في خصوصياته.

ـ أعرف ذلك.

عادت ثانية تهدىء من روع فريدة وتطمئنها:

ـ زوجك رجل صعب فهو مخلوق بهذا الشكل ولا يمكنك تغييره بسهولة فعليك الصبر، حبه في قلبه، في جوفه، في احساسه، فكثير من النساء لا يرغبن فهم طبيعة الرجل الذي يشاركهن الحياة ويؤثرن الافصاح عن المشاعر بصورة مستمرة، وهذا أمر يتعذر على بعض الرجال وذلك بحكم طبيعتهم، فماذا تريد المرأة سوى رجل مستقيم يحميها ويحفظ أولادها ويرعاها، ويجب أن تقبلي بالسعادة ولو كانت طيفاً وهمياً تستمدين منها الطاقة على مواجهة الحياة، هلا ترين كل الأخوة، فلكل واحد منهم شخصية مختلفة عن الآخر، فعليك فهم طبيعة زوجك، فربما خلف غلاف القسوة حمل وديع يكن لك كل مشاعر الرضا والاحترام، فماذا يرغمه على العيش معك سوى حبه لك، كنت أرى في عينيه وأثناء غيابك لوعته وشوقه، أراه وقد تحول إلى مخلوق ضائع يبحث عن ضالته حتى استقرت نفسه بعودتك، ودعك من الخرافات التي تجرك إلى طريق شائك.

انطلقت أسارير فريدة، قالت لتستوثق من ميساء.

ـ هل أحسست فعلاً بفقده لي أثناء غيابي.

تربت على ظاهر كفها

ـ صدقيني أحسست بذلك، حتى هاشم أكد لي هذا

الأمر، إنه يحبك يا فريدة ولكن بطريقته الخاصة!

انفرجت شفتاها عن ابتسامة راضية.

ـ أتمنى أن يكون كلامك صحيحاً، لقد أحسست وكأن عبئاً ثقيلاً انزاح عن كاهلي.

تمازحها ميساء حيث تشدها من أذنها هامسة

ـ لا تحملّيه فوق طاقته، دعيه على سجيته.

هيا تعالي لنتناول الشاي هنا وأشارت إلى صالون صغير فيه مقعدان من الخيزران ومائدة وضع عليها أصيص من ورد القرنفل وثمة نباتات خضراء مغروسة في أوان ذهبية قد تناثرت في زوايا الغرفة، كل شيء في المكان كان يبعث على الهدوء والسكينة، استرخت فريدة في جلستها تود لو تعيش هنا في أحضان هذه الجدران التي تنطق بالحياة لتنسى آلامها في دنيا البيت الكبير الذي أصبح بيتاً لأشباح آدمية.

الجزء الثاني عشر

الأيام الطويلة الراكدة في سماء هذه المرأة تمر مروراً بطيئاً يكاد يقتلها ويحطم كل آمالها، تحولت فتوح بعد طلاقها إلى كومة من الأحزان، أشفقت عليها أمها وأدركت أن ذبولها لا يدل إلا على حبها العنيف لزوجها، فحاولت مراراً الاتصال به تستميله ليعيدها إليه، بيد أنه رفض، لم يشأ أن يعيد ذكريات الماضي وآلامه المستمرة، أما الأولاد فقد انشدوا إليه أكثر من أمهم، فترك فراغاً عريضاً في حياتها البائسة، لم تعد قادرة على الاحتمال، فنالت منها مشاعر الوحدة كل النيل، إذ أصيبت بقرحة شديدة في معدتها جعلها ترقد لأيام طويلة في المستشفى لتتعالج، حتى الوساطات العائلية لم تفلح في رأب هذا الصدع، فقد عافته نفسه وجفلها كمن تكون أمراً مقرفاً يزعجه.

فكرت فتوح في أيامها التي مضت واستعادت شريط الذكريات لتتفحص تصرفاتها ومواقفها التي تكومت على صدر هذا الرجل حتى تحجر قلبه ناحيتها، بكت كثيراً، وفي غمرة دموعها تذكرت ميساء تلك المرأة التي لم تقترف ذنباً سوى أنها استقامت وصلحت نيتها وعرفت وجهتها في الحياة، انقبض قلبها حينما عرفت أنها سلكت طريقاً شائكاً ذاقت مرارته في آخر المطاف، ثم ذلك الضياع الذي يختلج مشاعر المرأة حينما تفقد زوجها وبيتها لتبقى هائمة تأخذها تيارات الحياة وتتقاذفها الهموم من كل جانب.

ضمرت في نفسها شيئاً انبرى هذا الزخم من الأفكار عن خاطرة أوشكت أن تتضح وتتبلور في ذهنها يوماً بعد آخر، هذا اللقاء الذي كان لا بد أن يحدث في يوم من الأيام، حملت حقيبة يدها وخرجت مسرعة، قالت أمها في ذعر:

ـ ما بك إلى أين أنت ذاهبة؟

ودون أن تلتفت إليها صاحت:

ـ ستعرفين فيما بعد.

رن جرس الباب، ففتحته ميساء وانبهرت.. من؟! من هذه.. فتوح؟!

اتسعت حدقتاها بشيء من الدهشة غير المعهودة.

دخلت فتوح وهي تحاول أن ترسم ابتسامة راضية على شفيتها

ـ كيف حالك يا ميساء؟

قالت ميساء والدهشة ما زالت تعقد لسانها:

ـ بخير تفضلي

ازدردت فتوح ريقها في ارتباك لا تدري كيف تثير الكلام حتى تبدد دهشة صاحبتها، وبحذاقة تقول ميساء:

ـ العيش والملح الذي ذقناه معاً لن يذهب عبثا

تنهدت فتوح بارتياح:

ـ هذا هو عهدي بك دائماً:

اطمأنت ميساء للهجتها:

ـ إننا أختان يا فتوح ومهما اختلفنا فخلافنا لا يفسد مودتنا.

وانطلقت فتوح تتحدث دون حرج:

ـ لقد ظلمتك يا ميساء كثيراً، كنت السبب في مشاكلك، وأنا جئت أعتذر لك يا عزيزتي، صدقيني لقد أدركت ضياعي بعد فوات الأوان، فماذا بقي أمامي سوى الحيرة والأحزان والدموع.

طفرت الدموع من عينيها، تقترب ميساء منها تربت على كتفها :

ـ لقد هالني ما تعرضت له حياتك .

بدت كالسيل الهادر تستطرد :

ـ حتى أولادي فروا مني لأني قضيت أياماً متعبة مكدودة أعالج قرحتي فلم ألق لهم بالا . . أوشك قلبي أن يتمزق لفرط هذا البعد وو . . .

قدمت ميساء إليها كوباً من الماء :

اشربي هذا الماء وهدئي من روعك .

صعد لهاثها :

ـ انني أحب محمد كثيراً وكنت أغار عليه منك، لا تلوميني يا ميساء أنت صغيرة وجميلة ومتدينة ومثقفة، وكانت شخصيتك طاغية محط اعجاب الجميع، وكزوجة كنت ألحظ في عيني زوجي هذا الانبهار بك، وعندما أفكر في نفسي أجدها طائشة ضائعة لا يحتكمها هدف أو مبدأ، أعيش أنانيتي وذاتي، لقد كرهتك كثيراً لأنك نقيضي أو الصورة التي أحب أن أكون فيها ولم أستطع، أنت أفضلنا جميعاً يا ميساء في كل شيء، في حكمتك واتزانك، إنها الغيرة، أنا أعترف، لعل اعترافي يبرىء جرحي ويسكن آلامي، ساعديني يا ميساء، أنا لا أرغب الان

سوى العودة لزوجي، وأنا أعرف أن لك مكانة عظيمة في قلب محمد وسوف لن يردك خائبة، أنا بحاجة إلى بيتي وأولادي لا تصدقي أن المال والجاه يعوض المرأة عن هذا الكنز الذي تنعم به في ظل زوجها، إنه التشرد يا عزيزتي.

هزت ميساء رأسها في ايجاب:

- سأتحدث إليه يا فتوح سأبذل قصارى جهدي ليعيدك إليه ثانية.

وبتوسل ذائب

- قولي له فليجربني، فليمنحني الفرصة الأخيرة.

لم تكن ميساء تصدق ما ترى أمامها، فتوح المتجبرة، الطاغية تنحني أمامها وبكل خضوع لتعيدها إلى زوجها، يا إلهي هل هي الأقدار أم أن الباطل لا بد أن يطأطىء هامته ويسلم أمره إلى الحق، فلا تنتصر في النهاية إلا الفضيلة.

- سأفعل المستحيل، ثقي بي يا عزيزتي.

فتحت فتوح حقيبتها وأخرجت منها علبة من القطيفة الحمراء وقدمتها لميساء

- تفضلي هذه الهدية كعنوان لصداقة جديدة ومحبة صادقة

تشكرها ميساء ممتنة

ـ ما أجمل هذا الخاتم . . جماله بعنوانه لا بشكله، إنك لا تصدقي حجم سعادتي .

وأنا أراك نوراً متلألأً يشع أمامي، أحسست بتلك الغيوم السوداء تنقشع عن قلبك ويحل محلها الحب والطمأنينة .

تمتمت فتوح

لا تتصوري كم أشعر بالارتياح وأنا أبتر هذا الجزء المؤلم في صدري لأنه تعشعش فيه سنين طويلة .

ثم قامت فتوح وضمتها إلى صدرها ودموعهما تختلطان ببعضهما وتصهران كل مشاعر الحسد والغيرة، فقبلتها صادقة وانصرفت .

بينما ميساء تردد في اطمئنان انه القرآن الكريم، القرآن الكريم ﴿**ادفع بالتي هي أحسن السيئة فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**﴾ .

اتصلت ميساء بمحمد وطلبت لقاءه، دهش محمد ميساء تتصل به!! هذه مفاجأة لم يكن يتوقعها، فرح أحس أنه سيحيا من جديد، هذه المرأة القوية في مبادئها وقيمها تبعث في نفسه الحماس دوماً سيلقاها . . جاء مسرعاً وكان باستقباله هاشم، وبعد تبادل التحيات والأشواق بادرت ميساء

ـ أظن أن من المناسب الآن أن نعيد الشمل

اكفهر وجه محمد:

ـ ماذا تقصدين؟

انطلقت ميساء تزف البشرى له:

ـ لقد تغيرت فتوح يا محمد، جاءت إلي واعتذرت باكية وهي مستعدة أن تكون رهن اشارتك طوال الحياة، أحست أنها تحتاجك تحتاج أولادها وقد وسطتني لهذا الأمر وأنا أتمنى أن يكون لقاؤكما على خير.

أطرق يفكر معترضاً:

ـ ما الذي يغيرها بعد هذا العمر الطويل.

ـ انها الحاجة يا عزيزي، التجربة تدلنا على الصواب، فامنحها الفرصة.

إنها لا تحبني يا ميساء.

ابتسمت.

بل تحبك بجنون، وما فعلت ذلك إلا بدافع الغيرة، لقد أفصحت عن مكنون صدرها بخضوع.

صمت محمد ثم رفع إلى ميساء عينين حائرتين، فأصرت ميساء:

ـ من أجلي أنا يا محمد، فلتكن آلامنا ومشاكلنا الضريبة لمعرفة الحقيقة الصائبة.

ربت هاشم على كتفه:

امنهحا فرصة انها أم أولادك حرام عليك أن تحرمها بيتها وأولادها في هذا السن.

اشفق عليها يا عزيزي.

بدا ساهماً يفكر لا يدري ما يفعل:

ـ لقد كنت أخطط للزواج من أخرى

وباشفاق تجيبه ميساء:

ـ لا تتسرع، اصبر ريثما تعود الأمور إلى وضعها الطبيعي

فلنذهب جميعاً إلى بيت فتوح وندعوها لتناول عشاء فاخر في احدى المطاعم احتفالاً بهذه المناسبة.

عادت فتوح إلى زوجها ذليلة خاضعة قد ازدادت خطوطها وغضونها فبدت أكبر سناً، ولم تعد عيناها حادتان كعهدهما بل كسيرتان جريحتان.

السأم والملل كانا يحيطان ناهد، والشك والطمأنينة احساسان يتراوحان في قلب حسين، عرفت أن العفة هي التي تشد الرجل إلى المرأة، فهي قد امتلكت كل مقومات الجمال

والأنوثة، ولم تعد هذه المقومات ذات اهمية، عندما خسرت العفة التي كانت تظلل تصرفاتها، بالأمس كانت تقف أمام مرآتها بزهو وخيلاء تمتلىء عيناها بذلك الجمال الصارخ والقوام الفاتن، وينتابها شيء من الغرور والرغبة في استعراض كل ما تملك أمام الأعين رغم حب زوجها واطرائه لمحاسنها ورغبته في تغيير شخصيتها للأفضل، وانطلقت خلف أسوار العفة تدوسها تحت أقدامها وتمنح قلبها لرجل عابث، فخسرت الحب الطاهر وفقدت الرجل الذي أخلص لها هذه المرة، كانت ترى جسدها بعين طفح فوقها سيل من الدموع، فبدت الرؤيا ضبابية لم يعد فيها شيء جميل، لأن العينين اللتين كانتا تعشقاها زهدتاها الآن، فلمن تتجمل؟ ولمن تلبس أحلى الثياب؟ انه يراها مجرمة قد اقترفت جرماً عظيماً الشك يملأ قلبه ويحمله على الابتعاد عنها.

العفة هي من كانت تثير حبها في قلبه، الآن صرعتني الرغبة المحمومة والهوى الطائش وأنا أرى أمامي كل يوم نساءً جميلات، بل هن أكثر جمالاً مني، لتصبح عملة الجمال شيئاً شائعاً بين الناس، لكن المرأة العفيفة التي ارتدت ثوب الحياء والحشمة قد عافت نفسها كل الرجال وأحاطت نفسها بجدار من القوة وحصن من الايمان هي التي تستحق الحب والاحترام. كرهت جمالها، كرهت جسدها، شعرت أن نضارتها بدأت تخبو وتنطفىء، لأن الشريان الذي كان يمدها بالحياة والرواء قد انقطع، وماتت الضحكة على شفيتها فازدادت رغبة في

الوحدة، تأسرها الأحزان ويؤلمها وخز الضمير، ولم يكن حسين بأقل عذاب منها، فقد حاول أن يستعيد حبه الذي خبا ومشاعره التي ذوت ويبدد هذا الشك بكل ما يملك من عنف الايمان وقوة مبادىء فلم يستطع، ثمة شيء يعربد في صدره ويحمله على هذا النفور فحوّل دفة حياته ناحية أعمال كثيرة يخدم بها الناس ليطوي حزنه قدر المستطاع.

تمر الأيام بحلوها ومرها على تلك القلوب الجريحة والنفوس المضطربة ما بين لحظة حب وشوق ولحظة حزن وألم، كل يرغب في أن يجدد حياته إلى الأفضل، فقد حملت ميساء مرة أخرى وعاد الأخوة يتزاورون، تشدهم هذه المرأة الدافئة بايمانها وقوتها وصبرها تحتضن مشاكلهم كالأم الحنون وولدت بنتاً جميلة سميت «أمينة» تيمناً باسم جدتها أم هاشم، وفي عامها الأول أقامت ميساء في بيتها احتفالاً رائعاً دعت إليه الأخوة وزوجاتهم وكان الحب والدفء يجمعهم في بحبوحة من السعادة والهناء، اجتمعوا ليطفئوا شمعتها الأولى ووهج السعادة يضفي على وجوههم ظلال هادئة، فهذه البراعم ستتفتح دائماً بأزاهير جميلة وتتغنى بأنشودة المحبة الخالدة.

تمت بحمد الله

الجمعة ٢٣ شوال ١٤١٥

الموافق ٢٤ مارس ١٩٩٥

ص. ب ١٥٦٧٧ الدعية ٣٥٤٥٧ الكويت

خولة القزويني

الفهرس